المجلة الأردنية للتاريخ والآثار

رؤية المؤرخين الفرنج لواقع المسلمين إبان الحملة الصليبية الأولى ٤٩٠-٥٢١هـ/١٠٩٦-١١٢٧م

لؤي إبراهيم بواعنة *

ملخـص

تهدف هذه الدراسة إلى تعرف نظرة مؤرخي الفرنج الأوائل المرافقين للحملة الفرنجية الأولى إلى المسلمين، والوقوف على واقعهم إبان تلك الحملة إيجابية كانت أم سلبية من خلال مؤلفاتهم، سواء أكان كاتبوها قريبين من القادة العسكريين صناع القرار أم مستشارين لهم، كذلك النظر في تلك الرؤى والنظرات والأخبار التي قدموها نظرة دقيقةً بعيدا عن الأهواء والعصبية. وقد ركزت هذه الدراسة على معالجة الجوانب العسكرية للمسلمين من زواياها المختلفة، وبينت جانبا من العلاقة السياسية بين المسلمين والفرنج في تلك الفترة، وكشفت عن المجازر والمذابح التي ارتكبت بحق المسلمين، التي مثلت جزءا من نظرتهم العدائية للمسلمين، وسلطت الضوء على الجوانب السلبية التي ألصقها مؤرخو الفرنج بالمسلمين، وحاولت الدراسة سد النقص الحاصل في بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية للمسلمين من وجهة نظرهم وتأتي أهمية هذه الدراسة بمعالجة تفصيلية لواقع المسلمين وقادتهم، وجوانب حياتهم المختلفة، وتشكل صورة شاملة لهم من مصادر الفرنج الأولية المرافقين للحملة، كشهود عيان قدموا تفاصيل دقيقة يمكن أن تسهم في إثراء المعلومات عن المسلمين في أثناء الحملة الفرنجية الأولى، وتكوين أرضية واضحة يتكئ عليها لدارسي الحملة.

الكلمات الدالة: المؤرخون الفرنج، الواقع الإسلامي، الحملة الصليبية الأولى.

المقدمة

أمدتنا الحملة الفرنجية الأولى بالعديد من الكتاب اللاتين الذين سجلوا تاريخ الشرق الفرنجي منذ خروج الفرنجة من بلادهم في عام ١٠٩٦م/٤٩٠هـ وحتى عام ١١٢٧م/٥٢١هـ. وجاءت هذه الدراسة بهدف الكشف عن واقع المسلمين، وبيان جوانب حياتهم المختلفة إبان الحملة الفرنجية الأولى من وجهة نظر المصادر اللاتينية[1]؛ حيث اعتمدت على ثلاثة شهود عيان للحملة الفرنجية

---

* أستاذ مساعد، كلية عمان الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية. تاريخ استلام البحث ٢٠١١/٦/١٣م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١١/٩/٢٨م.

١. أعدت الباحثة منى حماد دراسة جادة بعنوان: صورة المسلمين في المصادر اللاتينية للحملة الصليبية الأولى، اشتملت على تمهيد للعلاقة الإسلامية المسيحية والصورة المغلوطة عنهم، مع التركيز على قضايا محددة كجهل الفرنج بجغرافية البلاد الإسلامية، ومعتقداتهم، وأجناسهم، والأساطير التي نسجوها عن المسلمين، ومحاولة إظهار قوة الفرنج والاستهتار بالمسلمين، مع التركيز على مشاعر المسلمين السلبية تجاه الفرنج؛ حيث تناولت كل مؤلف على حدة، وبطرح ومنهج مختلفين، معتمدةً على المصادر الإنجليزية وليس المترجمة منها. انظر منى حماد، صورة المسلمين في المصادر اللاتينية للحملة الصليبية الأولى، أبحاث اليرموك، مج١٣، ع١، (أ)، ١٩٩٧م، ص٢٤٩-٢٦٣؛ سيشار إليه لاحقًا: حماد، صورة المسلمين.

الأولى في الفترة من سنة (١٠٩٥-١٠٩٩م/٤٨٩-٤٩٣هـ)، أبرزهم القس فوشيه الشارتري[٢] (Fulcher of Charters) في كتابه A History of the expedition to Jerusalem وتُرجم بعنوان "تاريخ الحملة إلى القدس" ١٠٩٥-١١٢٧م/٤٨٨-٥٢١هـ. ويعد مصدراً أساسياً في دراسة الحملة الفرنجية الأولى، وتكمن أهمية معلومات هذا الكتاب أن مؤلفه عاصر أحداث الحملة الفرنجية الأولى وكان شاهد عيان على معظم الأحداث التي دونها في كتابه[٣] بالإضافة للمعلومات التي استقاها من شهود العيان[٤].

يبدو أن فوشيه (Fulcher) أدرك الأهمية التاريخية للأحداث التي عاشها، فابتدأ في تدوينها، وخاصة أن مركزه كقسيس، ومستشار لبلدوين البولوني (Baldwin I) ورفيقه في أسفاره مكنه من الاطلاع على دخائل الأمور، وأتاح له أن يكون شاهد عيان على أحداث لم يتمكن غيره من تدوينها[5]. تأخذ كتابات فوشيه (Fulcher) بعد تولي الملك بلدوين الأول (Baldwin I) الحكم في بيت المقدس أهمية كبرى؛ إذ نجح في ما فشل غيره من شهود العيان، فكان تاريخه صادقًا ومفصلا[٦]. ويعد تاريخ فوشيه للفترة بين ١١٢٠-١١٢٧م/٥١٤-٥٢١هـ المصدر اللاتيني

---

٢. ولد فوشيه الشارتري بمدينة شارتر بفرنسا في الفترة الواقعة بين عامي (١٠٥٨-١٠٥٩م)/(٤٥٠-٤٥١هـ) ولا يعرف شيء عن مستهل حياته هناك، إلا أنه كان قسيسا في تلك المدينة، اتخذ الصليب سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ بعد مجمع كليرمونت (Clermont) دلالة على اشتراكه في الحملة الفرنجية الأولى، ضمن قوات روبرت دوق نورماندیا، وكونت فلاندروز، وستيفن كونت بلو وشارتر، وظل برفقتهم حتى اجتازوا البلقان وآسيا الصغرى، وعند مدينة مرعش شمال بلاد الشام انضم إلى بلدوين البولوني الذي زحف شرقًا عبر وادي الفرات، وأسس إمارة الرها الصليبية عام ١٠٩٨م/٤٩٢هـ واستمر مقيما معه مدة عامين، ثم رحل معه إلى بيت المقدس، ومكث فيها بقية حياته إلى أن انقطع عن الكتابة فجأة عام ١١٢٧م/٥٢١هـ، ومن المرجح أنه توفي ذلك العام، أو أصيب بمرض أقعده عن الكتابة. كان رجل دين على درجة كبيرة من الثقافة يدل على ذلك دقة معلوماته وتسلسلها. انظر الشارتري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، حرره وقدمه هارولد س. فنل، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠م، ص١٠-١١ (مقدمة المترجم)، ٤٢، ٥١-٥٣، ٨١-٨٥، ١٠٣-١١١، ١١٥-١٢٠، ١٣٦، ١٦٣-١٨٥. سيشار إليه لاحقاً: الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٣٧-٣٩، سيشار إليه لاحقاً: العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، محمود محمد الرويضي، إمارة الرها الصليبية، ط١، جامعة مؤتة، الكرك، ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢١. سيشار إليه لاحقاً: الرويضي، إمارة الرها، هالا عبد الحميد وريكات، الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م-٥٤٢هـ/١١٤٧م، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٠م، ص٢٣، سيشار اليها لاحقاً: وريكات، الحملة الصليبية الأولى.

٣. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٣١-٥٣، ٨١-٨٤، ١٠٣-١٢٠، ١٢٤-١٢٦، ١٤٦-١٥٣، ١٥٧، ١٦٢، ٢١٨-٢٢١.

٤. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٣-٦٤، ٦٧-٧٩، ١٣٤-١٣٥، ١٩٣، ١٩٦-١٩٧، ٢٠٠-٢٠٥، ٢١٢، ٢٢٥، الرويضي، إمارة الرها.

٥. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠-١١ (مقدمة المترجم)، ص٥٣، ٤٦-٥٨، ١٨٥-٢٤٢، وريكات، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٣.

٦. انظر قوله: "وصلنا القدس بسلام يوم انقلاب الشتاء..." الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٠. انظر

المعاصر الوحيد، كما يعد تاريخًا لكل الإمارات الفرنجية في بلاد الشام[٧]. وانفرد فوشيه بتركيزه واهتمامه على إعداد الفرنج والمسلمين والخسائر البشرية لكل من الطرفين، واهتمامه بها في كل المواجهات مما يؤكد قربه من الحدث، ولكن ذلك لا يعني التسليم بما يقدمه من أرقام يسعى فيها دائما إلى إعطاء صورة عن التضحيات الجسيمة التي قدمها الفرنجة وصولا إلى القدس، مما يؤكد الشك في دقتها[٨].

تمثل كتابات فوشيه (Fulcher) نموذجا واضحا لأسلوب المؤرخين الكنسيين[٩] إلا أن أسلوبه اتسم بالسهولة والوضوح وإن أكثر من استخدام أبيات من الشعر[١٠]. وكان بارعا في الوصف وإن اكتنفه شيء من المبالغة[١١]. وهذا يدعونا إلى الحكم عليه بعدم الموضوعية، إلا أنها قد تتأتى من تنويهه بصعوبة التيقن من صحة بعض الموضوعات لعامل البعد، والنقل عن الآخرين[١٢] إذ كان يتأكد من صحة الخبر لسماعه من أكثر من شاهد عيان حتى يتكون الإجماع، ثم يدونه، لكنه لم يخل من الميول العنصرية الواضحة في مشاهداته لأبناء جلدته فهو يعد جميع الإفرنج الذين اجتاحوا الأراضي المقدسة حجاجا، وقوما مستضعفين، ويمجد انتصاراتهم، ويبرر هزائمهم لكثرة

وصفه لإحدى المعارك عام ١١٠١م/٤٩٥هـ برفقة الملك بلدوين الأول: "أمرنا الملك بحمل السلاح ثم انتظمنا...واختار الملك أحد رؤساء الرهبان، وحمل خشبة الصليب المقدس على مرأى من الجميع". المصدر نفسه، ص١١٧، ١٢٦-١٦٣، انظر: العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٣٩.

٧. انظر: فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٩١-٢٣٠، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ط١، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م، ص١٢٩، سيشار اليه في ما بعد: عطية، إمارة أنطاكية.

٨. انظر إلى وصفه لمعركة بين المسلمين والفرنج عام ١١٠١م/٤٩٥هـ بعد خروجهم؛ أي الفرنج من يافا حيث حدد فرسان الفرنج بـ مئتين وستين فارسا ومشاتهم تسعمئة، في حين قدر عدد المسلمين بقوله: "وقد واجهنا في تلك الفترة أحد عشر آلاف فارس وحوالي واحدا وعشرين ألفًا من المشاة"، وقدر عدد قتلى المسلمين في نهاية المعركة بـ خمسة آلف فارس بينما فقدوا هم حوالي ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من المشاة، الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٨. انظر أيضا: المصدر نفسه، ص٤٦، ٤٨، ٦٥، ٧٥، ١٥٧، ١٩٧، ٢١٣، وانظر أيضا: وريكات، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٥-٢٦.

٩. برز ذلك واضحا تصوير كثير من الأعمال والمعجزات بأنها من أعمال الرب ومباركته إنقاذًا للمسيحيين، انظر قوله: "إن الرب لا يمنح النصر لمجد النبلاء،...وإنما يعطيه بمحبته لأولئك الذين صفت قلوبهم وقت حاجتهم ولأولئك الذين تحصنوا بالقوة الربانية". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٩. انظر أيضا المصدر نفسه، ص٥٠، ٥٣، ٥٦-٥٧، ٦٣، ٧٩، ١١٩، ١٢٣، انظر قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، مصر، ١٩٨٤م، ص٢٩-٣٠، سيشار إليه لاحقًا: قاسم، الحروب الصليبية..

١٠. انظر قوله في أثناء حصار نيقيا "علينا أن نوضح أنه طيلة حصارنا لمدينة نيقيا كانت المؤونة تصلنا بوساطة السفن وبرضى الامبراطور..." الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦. انظر أيضا: المصدر نفسه، ص٤٨، ٥٣، ٦٢-٦٣، ٧٥، ١٣٩-١٤٠، ١٩٧، ٢١٥.

١١. انظر قوله: "ومع أن رجالنا كانوا قلة،...إلا أنهم انقضوا على فيالق الأعداء، المتدفقة، كما ينقض الصيادون على مجامع الطيور،..." الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٨. انظر مبالغته بقوله: "لكنك كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبوحة لوفرة المحاصيل...تم ذلك بمعونة الرب الذي أطعم بخمسة أرغفة وسمكتين خمسة آلاف نسمة..." المصدر نفسه، ص٥٠.

١٢. انظر: الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢٠٦، الرويضي، إمارة الرها، ص٢٢.

الخطايا، بينما عد الشرقيين أعداء للمسيح(١٣).

أما شاهد العيان الثاني فهو ريموند آجيل(١٤) (Raymond de Agills) فقد وضع كتابه باللاتينية(15) ونقل إلى الإنجليزية "History of the Franks Conquerers of Jerusalem" وترجم بعنوان "تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس"(١٦). ويعد كتابه من المصادر الأساسية للحملة الفرنجية الأولى؛ إذ كان ريموند (Raymond) من الشهود العيان، ومن كبار الفرسان المقربين للقائد ريموند دي سان جيل(١٧) (Raymond De Von Toulouse) كونت تولوز، وأحد المشاركين في أحداثها مما أضفى على كتاباته أهمية خاصة(١٨). ويتضح في هذا المصدر، كغيره من باقي المصادر الفرنجية التي رافق مؤلفوها الحملة، تحيز مؤلفه لموقف سيده ومحاولته الدفاع عنه بأي طريقة كانت(١٩) وتتركز أهمية كتاباته بعد سقوط أنطاكية ١٠٩٨م/٤٩٢هـ وحتى نهاية الحملة ١٠٩٩م/٤٩٣هـ بموقعة عسقلان(٢٠).

امتاز أسلوب ريموند (Raymond) بالبساطة(٢١)، إلا أن الغلاظة والجفاف طبعا أسلوبه عند

١٣. انظر تفسيره لفشل الفرنج في الاستيلاء على أنطاكية: "شعرنا أن المصائب قد حلت بالفرنجة بسبب خطاياهم وأنهم فشلوا لهذا السبب" الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٥. انظر وصفه لإحدى المعارك بين المسلمين والفرنج عام ١١٢٣م/٥١٢هـ: "وقد قتل ستة آلاف من الستة عشر ألفا من الأعداء الذين قدموا إلى المعركة، ولكن قليلا من رجالنا قتلوا...ولكنهم كانوا شجعانًا فائقي المهارة ملهمين على القتال واثقين بمحبة ا ...". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٩٧. وانظر: قوله عند تقدم الجيش الفاطمي لقتال الفرنج بعد سقوط بيت المقدس: "ولما سمع الفرنجة بذلك، تبنوا خطة في غاية الجرأة، فزحفوا بقواتهم إلى عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة، حاملين معهم خشبة الصليب...". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٧. انظر أيضا: المصدر نفسه، (مقدمة المترجم)، ص١١-١٢، ص٣٦، ٣٧، ٤٠-٤٣، ٤٨-٥٥، الرويضي، إمارة الرها، ص٢٣.

١٤. ينتمي ريموند آجيل إلى آجيل "Aighuile" في مقاطعة اللوار الأعلى بفرنسا، وقد انضم إلى المندوب البابوي ادهيمار عند اشتراكه في الحملة الفرنجية الأولى، ثم أصبح كاهنًا لريموند كونت تولوز. انظر عطية، إمارة أنطاكية، ص٢٨. وهناك أشكال مختلفة لاسمه: Aguillers, Agilers, Aguilers.

15. Historia Francorum Quiceperum Iharusalem.

١٦. ريموند آجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله إلى الإنجليزية، جون هيوم هيل، لوريتال هيل، نقله إلى العربية حسين محمد عطية، تقديم جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية، ط١، الإسكندرية، ١٩٨٩م، سيشار اليه في ما بعد: ريموند، تاريخ الفرنجة، محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية، عين للدراسات والبحوث، ط١، مصر، ٢٠٠٧م، ص٧١، سيشار اليه في ما بعد: عوض، الإمبراطورية البيزنطية.

١٧. يرى سعيد عاشور أن ريموند عرف بالصنجيلي نسبة إلى مقاطعة "Saint-Gilles". انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢ج، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، مصر، ١٩٦٣م، ج١، ص٢١٤، ٣٦٠، سيشار اليه في ما بعد: عاشور، الحركة الصليبية.

١٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٧٧-٧٩، ٨٦-٨٧، ١٥٦-١٥٨، ١٧٢.

١٩. ريموند، تاريخ الفرنجة، ١٦٤-١٦٥، ٢١٦-٢١٧، وريكات، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٨، العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٢٣.

٢٠. عطية، إمارة أنطاكية، ص٢٨، قاسم، الحروب الصليبية، ص٣٣.

٢١. انظر حديثه عن الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان، ريموند، تاريخ الفرنجة، ١٦٣-١٧٣،

التعبير عما يدور بخاده من أفكار[٢٢]، وتميز عن غيره من مؤرخي عصره بكثرة التفاصيل[٢٣] وانسياقه في كتاباته وراء الأساطير والعاطفة الدينية، مما أفسد كثيرا من رواياته قيمتها حتى لو كانت صحيحة[٢٤].

تفوق ريموند (Raymond) على غيره من المؤرخين المعاصرين له بالوصف[٢٥] ولكنه كثيرا ما كان يقتبس من الكتب الدينية ويستعين بالأناجيل ليؤكد عدالة منطقه ووجه المقارنة بين الحوادث[٢٦] ويؤخذ عليه مبالغاته في بيان معجزات الفرنج وانتصاراتهم على المسلمين[٢٧] وعدم اهتمامه بالتواريخ[٢٨].

انعكست العاطفة الدينية عند ريموند (Raymond) على كتاباته كمؤرخ لتشبعه بأفكار الكنيسة الكاثوليكية عن المسلمين، فحاول جاهدا جعل كل ما قام به الفرنج من أعمال ضد المسلمين وأملاكهم، وأماكنهم المقدسة عملا من أعمال الرب تتم على يد جند المسيح، وقد أكثر من الاقتباسات من الكتب الدينية حتى يسبغ الشرعية على أعمالهم هذه لتحظى كتاباته باهتمام القراء في غرب أوروبا[٢٩].

---

٢٢. انظر ما قام به الكونت ريموند عند دخولهم أرض الماشيا؛ حيث أشار إلى معاقبة بعض الأسرى لإخافة سائر الأسرى بقوله: "وهكذا أصدر أمرا بسمل أعين بعض أسراه، وبتر أقدام البعض، وجدع أنوف وأيدي الباقين...وهكذا سلم هو ورفاقه...". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٥٩. العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٢٣.

٢٣. انظر حديثه عن تضاريس أنطاكية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٨٥-٨٦. انظر الحديث عن الحربة المقدسة من خلال رسالة من فلاح بروفنسالي إلى ريموند وأدهيمار. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٢٧-١٣٤.

٢٤. انظر رؤى ومحنة الحربة المقدسة لقوله "أعلنت الآن رؤى كثيرة أرسلها إلينا الرب وسأحكي، أنا مؤلف هذا الكتاب الرؤيا التالية تحت اسم الشخص الذي شهدها. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٩٧-٢٠٧.

٢٥. برز ذلك واضحا أثناء حصار أنطاكية بعد مهاجمة السلاجقة الأتراك لـ الكونت الفلاندر وقيام الكونت بمطاردتهم بقوله: "وكان الأحياء يرون القتلى منطرحين على طول الطريق كحزم القمح زمن الحصاد". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٩٠.

٢٦. انظر اقتباساته، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٩٨، ٢٤٠، ٢٦٠.

٢٧. انظر المعجزة التي حدثت أثناء حصار الفرنج لأنطاكية: "وقد تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب، عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة آلاف من المسلمين، وأروع من ذلك سيلا من الأمطار أغرق في اليوم السابق الخندق المحيط بالقلعة...". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٩. انظر معجزة اثنين من الفرسان الفرنج الذين أخافوا الأعداء أثناء حصار نيقية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٧٩.

٢٨. انظر عدم ذكر السنة، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٥٩-٦١، ٧٧-٨٠ انظر تدوينه للأحداث دون ذكر السنوات مع ذكر الشهر ص١٢٠، ١٥١، ١٦٣. انظر عدم اهتمامه أيضا بالتواريخ بقوله كنا في أحد الأيام، في الشهر الثامن من الحصار، في أعقاب الاستيلاء على أنطاكية، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٦٩، ٨٨، ١٢٧.

٢٩. انظر ريموند، تاريخ الفرنجة، (مقدمة المترجم حسين عطية)، ص٣٠-٣١. انظر حديثه أثناء حصارهم لأنطاكية، "وعندما حان وقت المواجهة ركع فارس بروفنسالي...وبصحبته مئة وخمسون من المشاة، وطلب العون من الرب، وحث رفاقه على التحرك صائحا "اهجموا يا جنود المسيح...تحطمت غطرسة العدو". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٦-١٠٧، انظر المصدر نفسه، ص٦٠، ١٢١ يقول ريموند عن المسلمين أثناء

تميز ريموند (Raymond) بطغيان الصبغة الدينية عليه مما يشير إلى أنه كان رجل دين، الأمر الذي يتضح مما احتواه كتابه من رؤى دينية، وأحاديث مستمرة عن القسيسين والرهبان[٣٠]، وهو متدين متعصب، وقد برز ذلك واضحا في عدم تسامحه مع المعارضين للعقيدة النصرانية الكاثوليكية، وخاصة المسلمين [٣١].

أما المؤلف الثالث الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة، فهو المنسوب إلى مؤلف مجهول[٣٢] والمكتوب باللاتينية[٣٣] ونُقل للإنجليزية بعنوان: The First Crusade وترجم للعربية بـ "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"[٣٤]. ويعد هذا المؤلف من المصادر الفرنجية الأساسية للحملة الفرنجية الأولى في الفترة الممتدة من ١٠٩٥-١٠٩٩م/٤٨٩-٤٩٣هـ أي منذ قيام الحملة حتى الاستيلاء على بيت المقدس، وتأتي أهميته لأن مؤلفه أحد شهود العيان على معظم الأحداث التي دارت في بلاد الشام؛ إذ كان مرافقًا للأمير بوهيمند (Bohemond) النورماندي أحد قادة الحملة الفرنجية[٣٥]. ومن المرجح أنه لم يكن فارسا من فرسان الحملة وإنما كان جنديا عاديا في جيش

حصار عرقة: "قد تركوها بسبب الخوف الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في المنطقة...". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٦.

٣٠. انظر روايته في أثناء هزيمة كربوغا أمير الموصل بقوله: "فسار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء أمام صفوف فرساننا، وهم ينشدون ويطلبون العون من الرب وحماية القديسين". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٤٥، انظر أيضا: المصدر نفسه، ص١٤٧، ١٥٥، ١٦٦، وانظر: وريكات، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٨.

٣١. انظر النظرة العدائية للمسلمين أثناء حصار طرابلس: "وشل الرب حركة قوات طرابلس، وامتلأت الأرض بدم المسلمين...وفقدنا رجلا أو اثنين...". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢١٦. انظر أيضا قوله بعد سقوط بيت المقدس: "وإذن فيكفي أن أحكي أنه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى رُكبهم وسروج خيولهم...كان يوما جديرا وسعادة جديرة وفرحا دائما...وقد بدل أحزاننا وصراعاتنا إلى سعادة وابتهاج..." ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٧.

٣٢. كان الكاتب المجهول أحد شهود العيان للحملة الفرنجية الأولى، ويبدو أنه كان ينتمي إلى عائلة نورمانية استقرت في جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها، وانضم إلى الفرقة الصقلية في الحملة تحت قيادة بوهيمند (Bohemond). تبدأ "أعمال الفرنجة" بتقرير مختصر عن مجمع كليرمونت ثم يعقبه تلخيص موجز لمختلف الحملات التي انطلقت من أوروبا إلى فلسطين، ويروي تجربته الشخصية كواحد من الصليبيين، وتمتد قصته حتى الاستيلاء على بيت المقدس ثم يتحدث عن انتصار الصليبيين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩م/٤٩٣هـ وربما يكون قد مات عقب ذلك مباشرة لأن الكتاب يتوقف عند هذه الحادثة. انظر: بيريل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٧٣-١٧٤. سيشار اليه لاحقًا: سمالي، المؤرخون انظر أيضا: العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٢٨-٢٩.

٣٣. "Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum"

٣٤. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م، ص٥. سيشار اليه لاحقًا: مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة.

٣٥. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١١، ٥٧، ٦٦-٦٧، ٨٥. العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ٣٠-٣٧، الرويضي، إمارة الرها، ص٢٥

الأمير بوهيمند (Bohemond) ويتضح ذلك في صراحته وبساطته في التعبير[٣٦]. إلا أن معلوماته تدل على أنه كان عليما بما يدور في مجلس النبلاء أو المجالس العسكرية لأنه كان مؤرخ حملة الأمير بوهيمند[٣٧] وهذا يعني أنه كان له احترامه وكان له مكانة خاصة في الجيش، إلا أن ميوله تبدو واضحة بتركيزه وإعجابه بسيده بوهيمند[٣٨].

اتسمت كتابات شاهد العيان المجهول مقارنة مع غيره من الكتّاب الفرنج بخصوصيتها، وقد اعتمد عليه معظم الباحثين الذين كتبوا عن هذه الفترة[٣٩]. ويظهر أنه تشبع بالحماس للحروب الفرنجية، بينما تشبع بالكراهية للمسلمين، فَعد المسيحيين الذين لقوا مصرعهم شهداء، بينما ذهبت أرواح المسلمين إلى الشيطان[٤٠].

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن رؤية الكتّاب الفرنج المرافقين للحملة الفرنجية الأولى للواقع الإسلامي بجوانبه المختلفة من وجهة نظرهم سواء أكانت ذما أم مدحا، مع الأخذ بالحسبان ما لديهم من تعصب وميول واضحة نحو بني جلدتهم معتمدين في ذلك على التحليل والمقارنة والنقد التاريخي البناء في دراسة رواياتهم.

- الحالة السياسية والعسكرية عشية الحملة الفرنجية الأولى كما رصدها الكتّاب الفرنج

لقد صور ريموند (Raymond) ما كان يعانيه الشرق الإسلامي من ضعف عسكري عشية الحملة الفرنجية الأولى، إثر هزيمة الأمير كربوغا[٤١] في أنطاكية[٤٢] فقد قدر حجم القوة العسكرية

---

٣٦. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة.، ص١١، انظر روايته لكيفية اقتحام أنطاكية: "غير أن السلم الذي صعدنا عليه تحطم،...وكان الظلام مخيما، وأخذنا نتحسس الطريق..."، ص٦٩.

٣٧. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٢، انظر روايته عن المجلس الذي انعقد قبل سقوط أنطاكية بيد الفرنج. ص٦٧، انظر قاسم، الحروب الصليبية، ص٢٨

٣٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٨، ٥٣، ٥٧-٥٩، ٦٧، انظر: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس، ٣ مجلدات، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م، مج١، ص٤٦٩. سيشار اليه لاحقًا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية.

٣٩. العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٢٦-٢٨، الرويضي، إمارة الرها، ٢٦.

٤٠. يقول في أثناء حصار نيقية: "استمر هذا الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام، واستشهد فيه كثير من رجالنا وصعدت أرواحهم الطاهرة إلى ا ...ومات كثير من الفقراء جوعا في سبيل تمجيد اسم المسيح، وصعدت نفوسهم منتصرة إلى السماء مرتدية ثياب الشهادة البيضاء...". مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٧، انظر أيضا: المصدر نفسه، ص٤٠-٤٤، العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٣١.

٤١. كربوغا: هو أبو سعيد قوام الدولة أمير الموصل، كان تحت إمرة سلاطين سلاجقة بلاد فارس، توفي عام ٤٩٥هـ/١١٠١م في مدينة خُوِيّ بأذربيجان. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م). الكامل في التاريخ، ١٢مج، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦م، مج١٠، ص٣٤١-٣٤٢. سيشار اليه لاحقًا: ابن الأثير، الكامل.

٤٢. أنطاكية: هي قصبة العواصم من الثغور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة، وهي بلد عظيم ذو سور وبها كنائس. انظر ياقوت، أبو عبد ا ياقوت بن عبد ا ، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م). معجم البلدان، ٤ مج، قدم له محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، مج١، ص٢١٣-٢١٥، سيشار اليه لاحقًا: ياقوت،

الإسلامية الهزيلة التي ستتصدى للفرنج في أثناء تقدمهم إلى بيت المقدس بقوله: "ونحن نعتقد، أن الفرنجة لو تقدموا فإنه لم يكن هنالك مدينة بين أنطاكية وبيت المقدس تلقي عليهم حجرا واحدا"[٤٣]. وجاء موقفه هذا رداً وحسماً للخلافات التي نشأت بين الفرنج أنفسهم عقب انتصارهم في أنطاكية ١٠٩٨م/٤٩٢هـ من جهة وتشجيعا لهم للوقوف صفًا واحدا ضد المسلمين من جهة أخرى.

كما عكست روايات ريموند (Raymond) حالة التشرذم والتفكك السياسي بين الإمارات العربية والإسلامية آنذاك من خلال تعرضه لما قام به السلاجقة الأتراك[٤٤] من محاصرة قلعة إعزاز[٤٥]؛ مما دعا المحاصرين إلى الاستنجاد بقوى فرنجية تمثلت بالدوق جودفري (Gaudefroi) حيث عرضوا عليه تسليم القلعة مقابل خلاصهم من هذا الحصار[٤٦] وفي هذا دلالة واضحة على وجود انقسام بين الأمراء المسلمين أنفسهم، الأمر الذي أدى بهم للتحالف مع الفرنج ضد بعضهم بعضا، ونتيجة لهذا الانقسام وهذه الخلافات المذهبية والمصالح السياسية فقد كان رد الفعل الإسلامي لدى حكام المسلمين بعامة وحكام الشام بخاصة بطيئًا متعثرا إذ ظهر أول رد فعل إسلامي بعد ثلاثة شهور من قدوم الفرنج أمام أسوار أنطاكية[٤٧].

وجاء نقد فوشيه (Fulcher) للمسلمين لاذعاً وحاملاً في جوهره تصويراً لواقعهم السياسي والعسكري، واتهمهم بالتخاذل في استعادة أراضيهم المحتلة لافتقادهم للإرادة والعزيمة والتصميم: "فقد كان بمقدور الأتراك...أن يستعيدوا الأراضي بهجومٍ مباغت إذا ما تركت من غير حماية. ولو حدث ذلك فإن ضررا عظيما يحل بكل الفرنجة في طريقهم إلى القدس..."[٤٨]. وما ذلك إلا محاولة لتحميل المسلمين مسؤولية الاحتلال الفرنجي، وإبراز ما كانوا عليه من التفكك.

هذا وقد تباينت مواقف القوى الإسلامية المختلفة للحملة الفرنجية الأولى، ويجب التمييز عند رصد تلك المواقف بين الرسمي منها-المتمثل في دولة الخلافة والسلطة السلجوقية والدولة الفاطمية في

معجم البلدان.

٤٣. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٥١.

٤٤. أشار ابن العديم إلى أنه في عام ٤٩١هـ/١١٩٥م عصى والي عزاز عُمر الملك رضوان بن تتش صاحب حلب فخرج إليه بعسكره وحصره، فاستنجد بالفرنج، فوصل صنجيل بعسكرٍ كبير. انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة ا الحلبي، (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م). زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٤٣-٢٤٤. سيشار إليه لاحقاً: ابن العديم، زبدة الحلب. انظر أيضا: عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٢٠، حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط٢، مصر، ١٩٥٨م، ص١٥٣-١٥٦، سيشار إليه لاحقاً: حبشي، الحرب الصليبية.

٤٥. إعزاز: تكتب عزاز وقد تكتب بالألف في أولها وهي بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج١، ص٣٢٤.

٤٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٥٥. أشار ابن العديم أن والي إعزاز استنجد بالصنجيلي، انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٤٣.

٤٧. عطية، إمارة أنطاكية، ص١١٥.

٤٨. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨٠.

مصر، والإمارات العربية في الشام- والموقف الشعبي المتمثل في السكان والأهالي.

ورسم صاحب الجستا صورة للجهود التي بذلها الأمير كربوغا في حشد جيش كبير لمقاومة الفرنج المحاصرين لأنطاكية بقوله: "جمع كربوغا جموعاً غفيرةً جدا من الوثنيين والترك والعرب والشرقيين والرعاع، وغير الأرثوذكس، والكرد والفرس، الغلمان وغيرهم"[٤٩] وعرض فوشيه (Fulcher) لواحدة من صور التعاون بين جيوش المسلمين عام ١١١٨م/٥١٢هـ من خلال إشارته إلى زحف قوة إسلامية ضخمة من مصر عدادها خمسة عشر ألف فارس وعشرون ألف راجل بقصد استرجاع بيت المقدس من الفرنج، وعند وصولهم إلى عسقلان[٥٠] التقى بهم الأمير طغتكين ملك دمشق ورجاله[٥١].

رصد فوشيه (Fulcher) تحركات الجيوش الإسلامية ضد الفرنج إثر سقوط بيت المقدس، فقد تحدث عن الجيش القادم من مصر عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ لمقاتلة المسيحيين ووصفهم بالطغاة[٥٢]، وتحدث عن حملة الأتراك العسكرية القادمة من دمشق بقيادة الملك شمس الملك دقاق[٥٣] ويقدرها بـ ٤٠٠ محارب[٥٤]. وحملة أُخرى بقيادة الملك غازي بن كمشتكين بن دانشمند (١٠٩٧-١١٠٥م) (٤٩١-٤٩٩هـ) قرب مدينة ملطية[٥٥] تهدف إلى قطع الطريق على الأمير بوهيمند (Bohemond)[٥٦]، وتحدث عام ١١١٣م/٥٠٧هـ عن حملة إسلامية يقودها الأميران مودود وطغتكين، فوصف الأمير مودود بقيادته لقوة هائلة، في حين تحدث عن الأمير طغتكين أنه جمع حشداً لا يحصى من سوريا[٥٧].

وكشف فوشيه (Fulcher) عن مواقف بعض السكان من الحملة معبراً عن السكان بلفظة "الشرقيين"؛ إذ رفضوا التعاون مع زعماء الحملة وفرسانها واعترف فوشيه بنقص الغذاء والخبز المتوافر لديهم للاقتيات به، ولم يقبل السكان بيعهم شيئاً حتى تلاشت مؤنهم، ولم تعد خيولهم تجد

٤٩. انظر: مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٧١.
٥٠. عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ص٣٢٧.
٥١. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٨٥.
٥٢. المصدر نفسه، ص٧٧.
٥٣. هو الملك شمس الملك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق، توفي إثر مرض عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م. انظر: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م). تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، مطبعة اليسوعيين، د.ط، ١٩٠٨م، ص١٤٤، سيشار اليه لاحقًا: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.
٥٤. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨٤.
٥٥. مَلَطْية: بلدة من بلاد الروم تتاخم الشام. ياقوت، معجم البلدان، مج٤، ص٣١٥.
٥٦. وقد تمكنت هذه الحملة من أسر الأمير بوهيمند وقتل عدد كبير من جنده. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨٤-٨٥.
٥٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٢.

أعلافاً تأكلها[٥٨].

أما ريموند (Raymond) فقد صور حالة البلاد فور سماع أهلها بقدوم الفرنج، وقد تمثلت بهجرة السكان لمدنهم وقراهم مثلما حدث لطرسوس[٥٩] قبيل حصار عرقة[٦٠]؛ حيث هجروا مدينتهم، وعلل ريموند سبب هجرة أهلها بداعي: "الخوف الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة"[٦١]. وهنا تظهر عدم الموضوعية واضحة في معالجة الأحداث لدرجة التهويل والمبالغة وتفسير الأحداث على هواه. وكثيراً ما عبر مؤرخو الحملة الفرنجية الأولى ومرافقو الحملة عن نصرة الرب لهم، وتأييده لجند المسيح وقادة الحملة المقدسة لاستعادة تلك الأراضي، وما ذلك إلا تعبير عن المبالغة في العاطفة الدينية.

لم ينته الأمر بالسكان الذين ينعتهم ريموند (Raymond) بـ "الوطنيين" إلى هجرة مدنهم عند علمهم بقدوم الحملة الفرنجية الأولى نحوهم، بل وصل إلى تركهم تحصيناتهم ومزارعهم ذات المخازن المليئة بالمؤونة وبدا ذلك واضحاً في أثناء مسير الحملة على الساحل الشامي للبحر المتوسط باتجاه بيت المقدس مروراً بحصن الأكراد[٦٢].

وتحدث المؤلف المجهول عن هروب الترك والعرب والشرقيين والغلمان وجميع الشعوب البربرية من مضائق الجبال ومنافذ السهول نحو خيامهم أثناء تقدم فرسان الفرنج نحو آسيا الصغرى، وقدر عدد الهاربين بثلاثمئة وستين ألف مقاتل[٦٣]. وفي هذه الرواية مبالغة واضحة أساسها إبراز بطولات الفرنج، ومواهبهم الحربية، ودور النجدات والإمدادات العسكرية ورضى "الرب الحنون" الذي برز واضحا بعدم هلاكهم على يد المسلمين[٦٤].

وفصل رواة الحملة الفرنجية في الحديث عن تخاذل أمراء الشام وتعاونهم مع الفرنج، ويبرز ذلك واضحاً بموقف أمير طرابلس[٦٥] آنذاك الذي تعاون مع الملك بلدوين الأول (Baldwin I)[٦٦] أثناء رحلته لبيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري (Gauderfroi) فقدم له الخبز والخمر والعسل

---

٥٨. الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨١.

٥٩. طَرَسُوسُ: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ص٥٦.

٦٠. عِرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة. ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ص٣١٧.

٦١. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٦.

٦٢. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٣، انظر أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج١، ص٣٧٩. حصن الأكراد: حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج٢، ص٥٢.

٦٣. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠.

٦٤. انظر المبررات التي قدمها المؤلف المجهول لهزيمة المسلمين تلك. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤١-٤٢.

٦٥. أطْرَابُلُس: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام بين اللاذقية وعكا. ياقوت، معجم البلدان، مج١، ص٧٥. كان أمير طرابلس آنذاك أبو علي فخر الملك ابن عمار. انظر: ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٤٤.

٦٦. توفي الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م/٥١٢هـ، في حين توفي بلدوين الثاني عام ١١٣١م/٥٢٦هـ. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٩.

المصفى والضأن المطهو، وألمح فوشيه (Fulcher) إلى وصفه بالجاسوس المخاص لهم بدليل المعلومات العسكرية التي قدمها لهم عن الكمين الذي أعده لهم أمير دمشق دقاق، وأمير حلب جناح الدولة[٦٧]، على الطريق التي سلكوها للقبض عليهم، ولم يتورع عن نصائحه لهم ووضعه أفضل الخطط التي يجب اتباعها لقوله: "أرسل أمير طرابلس...الخبز والخمر...وأعلم بلدوين أن دقاق أمير دمشق، وجناح الدولة أمير حلب، كانا في انتظاره في جمع من الأتراك والشرقيين والعرب في الطريق...ومع أننا لم نصدق زعمه تماما، إلا أننا علمنا في ما بعد أنه كان صادقًا..."[٦٨]. ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب على الأمراء المسلمين في تلك الفترة لما كانوا عليه من الانقسام والفرقة.

وقدم أمير بيروت[٦٩] للملك بلدوين الأول (Baldwin I) الدعم والمساعدة والمؤونة إثر علمه بنزوله قرب المدينة، فكان يرسل له قوارب مليئة بالطعام يومياً، خوفًا منه، وليس حبا له كما يروي فوشيه (Fulcher) وهذا ما كان عليه أمراء صيدا[٧٠] وصور[٧١] وعكا لقوله: "لقد تصنعوا المودة ولكن قلوبهم كانت خالية منها..."[٧٢] وبغض النظر عن نوايا أولئك الأمراء أو خوفهم من الفرنج إلا أنها تعكس شيئاً من التعاون مع قادة الحملة. ومن هنا يتضح تركيز مؤرخي الفرنج على مدى تفكك جبهة أمراء المدن الإسلامية في الشام وعدم وقوفهم صفاً واحداً في وجه الفرنج الذين نجحوا في السيطرة على البلاد[٧٣].

القوى العسكرية الإسلامية من وجهة نظر شهود العيان الفرنج

تعددت المسميات التي أطلقتها المصادر اللاتينية على القوات الإسلامية أثناء مسير الحملة

٦٧. هو جناح الدولة حسين بن أيتكين صاحب حمص. قتله الباطنية عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م. انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٤٧.

٦٨. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٣، أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة عفيف دمشقية، دار الفارابي، ط١، بيروت، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، ٢٠٠١م، ص٩٢. سيشار إليه لاحقاً: معلوف، الحروب الصليبية.

٦٩. بيروت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيداء ثلاثة فراسخ. ياقوت، معجم البلدان، مج١، ص٤١٢-٤١٣.

٧٠. صَيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ص٢١٢.

٧١. صُور: مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر وهي حصينة جدا، وهي شرقي عكا. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ص٢١٠.

٧٢. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٦، انظر أيضاً علية الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩م، ص٢٧٥، سيشار إليه لاحقاً: الجنزوري، الحروب الصليبية.

٧٣. الجنزوري، الحروب الصليبية، ص٢٨٠.

الفرنجية الأولى فقد نعتوهم بالترك[٧٤]، وأخرى بالوثنيين[٧٥]، وثالثة بالكفرة[٧٦]، والشرقيين[٧٧] والأعداء[٧٨]، والطغاة[٧٩]، كما نعتوا أيضا بالجنس الخسيس[٨٠]. وجميع هذه المسميات ذات دلالات سياسية ودينية وحتى اجتماعية؛ مردها الأساسي الجهل بطبيعة الدين الإسلامي وأبنائه، والخلط وافتقارهم لتقييم صحيح للمجتمع الإسلامي، وكذلك حالة العداء والحقد على المسلمين مع ميول سياسية ودينية واضحة ضدهم.

وليس من السهل وضع حدود فاصلة ومطلقة بين المفاهيم والنعوت التي أطلقها الفرنج على المسلمين؛ فكثيرا ما كانوا ينعتون الفئة نفسها بمفاهيم عدة[٨١] وقد بينا سبب عدم تمييزهم هذا إلا إنه من الممكن توضيح بعض الدلالات أو أصول هذه المفاهيم والنعوت، فكان لبعضها دلالات سياسية وأخرى عسكرية وثالثة دينية وربما اجتماعية. إلا إن بعض المفاهيم جمعت بين أكثر من دلالة، فمصطلح الأعداء حمل دلالة سياسية من الاختلاف والعداوة والتنازع وحمل دلالة عسكرية برزت واضحة في سياق النصوص؛ إذ كثيرا ما أطلقت أثناء المقاومة الإسلامية العسكرية للفرنج أو المواجهة معهم إذ كانوا ينعتونهم بالأعداء[٨٢]. في حين نجدهم ينعتون المسلمين بالوثنيين تمييزا لها عن المسيحية بهدف إعلاء شأنها وبيان أفضليتها، والتقليل من شأن المسلمين[٨٣] فالوثني برأيهم من لا يعتنق المسيحية ويخالفها بل يعتبر مملكة المسلمين مملكة وثنية وأنه سيتم سحقها وتحل محلها إمارة مسيحية[٨٤] وقد يعود إطلاقهم لهذه التسمية لربطها بعهود ما قبل الإسلام عندما كان العرب يعبدون الأوثان والأصنام[٨٥].

---

٧٤. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٨، ٣٩، الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٢، ٦٤، ٦٧، ٦٣، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٢٠.
٧٥. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠، ١١١، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٣.
٧٦. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٧، في حين استخدم صاحب الجستا مصطلح الترك الكفرة. انظر: مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠.
٧٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٥، ١٣٨، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠.
٧٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠.
٧٩. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٧ مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ٤٣
٨٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٣٦؛ كما وصف فوشيه المسلمين بالجنس الشرير. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٦.
٨١. انظر قول مؤلف مجهول: "أما نحن فلم نكف عن تعقب أولئك الترك الطغاة". انظر مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٣. استخدم فوشيه لفظة جموع العرب وعبّر عنهم بأنهم أعداء. انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٢٤.
٨٢. انظر النصوص عند ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٧٩، ١٤٥، الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٨-٤٩، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٤، ١١٠.
٨٣. انظر قول ريموند: "دحر فرساننا الأربعمائة ستين ألفًا من الوثنيين". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٩٠.
٨٤. انظر قول ريموند الذي يعدّ أرض أنطاكية ليست وثنية بل تدخل في اختصاصات القديس بطرس. انظر: ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٤٢، ١٤٢.
٨٥. يرى ابن منظور أن مصطلح الوثنية من وثن، ومنها الوثن والصنم، وتعني الوثنية الكفرة، أو التماثيل أو

كما نعت الفرنج المسلمين بالكفار والكفرة، وقد حمل هذا المصطلح دلالة دينية وعسكرية في آن إذ عادةً ما يطلق هذا المصطلح على الشخص أو الجماعة عند تماديهم وغلوهم في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم[٨٦] إلا إن نصوص الكتاب تثبت أن ظروف استخدامه كانت عسكرية بدافع الحقد والكره على المسلمين لقيامهم بقتل الفرنج، كما ذكر عند الإشارة لشدة بأس المسلمين بحق الفرنج لقول ريموند: "قتل الكفار ستة أو سبعة من قومنا"[٨٧].

كما نعت المؤلفون الفرنج المسلمين بالطغاة، بدلالة اجتماعية نتيجة التمادي في الظلم والجبروت والعناد والحماقة والتكبر من وجهة نظرهم[٨٨]. وأطلقوا الطاغية على بعض قادة المسلمين مثل ياغي سيان صاحب أنطاكية[٨٩] ربما لكثرة القتلى على يديه[٩٠]. وعد المسلمون برأيهم طغاة وخاصة عندما كانوا يهبون لقتالهم[٩١]. وزادوا في أوصافهم حتى حطوا من مكانتهم فوصفوهم بالرعاع[٩٢] وهم سقط الناس وسفلتهم وغوغاءهم وأخلاطهم كما جاء عند ابن منظور، ودافعهم في ذلك الوصف الاجتماعي بهدف التقليل من شأن مقاتلي المسلمين؛ إذ كان هؤلاء إحدى فئات الجيش الإسلامي وعلى هذه الهيئة كما وصفوهم[٩٣]. أما مفهوم العرب فمن المرجح أنهم أدركوا أشخاصهم فهم من يتكلمون العربية أو الجنس العربي المعروف؛ إذ كان جزءا من المقاومة وربما ميزوهم بذكرهم هذا عن الترك السلاجقة في نيقية وغيرها، فالعربي عند ابن منظور من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها، ومن استوطن المدن والقرى العربية[٩٤] ولكن

الأصنام وجمعها أوثان، وأصل الأوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة ينصبها ويعبدها. انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، ١٥مج، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٦م، مج١٣، ص٤٤٢-٤٤٣. سيشار اليه في ما بعد: ابن منظور، لسان العرب.

٨٦. الشيخ عبد ا البستاني، الوافي، مكتبة لبنان، لبنان، ص٢٧٤. سيشار اليه لاحقًا: البستاني، الوافي.

٨٧. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٧٢، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٤.

٨٨. الطغاة من طغا يطغو طغوانًا من جاوز الحد والقدر، وقيل طاغوت من عُبد من دون ا ، وقيل طغي وطغى طغيا جاوز الحد بالعصيان، والكافر الذي تمادى وغلا في كفره وأسرف في المعاصي والظلم، وتأتي الطاغية من الجبار والعنيد والأحمق والظالم. انظر: البستاني، الوافي، ص٢٧٤.

٨٩. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٥.

٩٠. انظر تقطيعه رؤوس الأرمن. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٢٠.

٩١. يقول فوشيه: "لما سمع الفرنجة بذلك، تبنوا خطة في غاية الجرأة، فزحفوا بقواتهم إلى عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٧.

٩٢. يقول فوشيه واصفًا من دُعي بالرعاع ولكن بمفهومهم العام بقوله: "فأتوا متنكرين بزي رعاع يتنقلون ويبيعون البضائع". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢٠٠.

٩٣. واحد الرعاع رعاعة ومنه حين تنكر الناس لعثمان بن عفان، وقد تقال في الرذال والضعفاء من الناس إذا فزعوا طاروا. انظر ابن منظور، لسان العرب، مج٨، ص١٢٨، مادة رعع.

٩٤. ابن منظور، لسان العرب، مج١، ص٨٧٥. مادة عرب في حين أوضح ابن منظور في السياق نفسه أن من سكن البادية هم أعراب.

المؤرخين الفرنج خلطوا أحيانًا فاعتبروا العرب من سكنوا بلاد العرب[٩٥]. وفي أماكن أخرى ربطوا العرب برعاة الغنم والجمال[٩٦]. في حين استخدموا مصطلح الشرقيين بنصوص فضفاضة[٩٧] مع أنها ذات بعد جغرافي لأهل المنطقة الواقعة شرقي البحر المتوسط وشرقي أوروبا وهي أقسام الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى[٩٨]. وأحيانًا حددوا الشرقيين بأهل الشام[٩٩]. أما الترك، فيبدو أنهم خبروهم وتعاملوا معهم وهو مفهوم واضح ومحدد بالسلاجقة[١٠٠]. وكل هذه المفاهيم مع تعدد وتنوع دلالاتها فهي تصب في معنى واحد وهم المسلمون.

وقد اتسمت مقاومة المسلمين أثناء الحملة الفرنجية الأولى على المشرق الإسلامي بوجهات نظر مختلفة حول أدائهم، فقد حملت بعض المصادر اللاتينية في طياتها سمة الإعجاب بشجاعة القوات الإسلامية، واعترفت بشدة مقاومتهم، وأشارت لذلك عند بدء حصارهم لأنطاكية ١٠٩٧-١٠٩٨م، فقد ذكر صاحب الجستا: "ضيق الترك علينا الخناق من جميع الجهات ضيقاً، لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا فكابدنا مجاعة هددتنا بالفناء"[١٠١]. في حين يرى المؤرخ نفسه أن هذه المقاومة كانت في المعرة[١٠٢] من الشدة بحيث أعاقت رجال الفرنج عن أي تقدم لقوله: "غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن أي تقدم"[١٠٣].

وقد ضرب استبسال أهل عرقة وصمودهم مثالاً واضحاً على تلك المقاومة من خلال قيامهم في إحدى أوديتها بحشدٍ كثيف وبهمة عجيبة دفاعاً عن تلك المدينة[١٠٤] كما برزت هذه الشجاعة عند مهاجمة الفرنج لحصن الأكراد، إذ لم يبد الجنود المسلمون نوايا سليمة لهم، وصمموا على عدم

---

٩٥. انظر كيف تحدث فوشيه عن جزيرة العرب وقلعة مونتريال فيها وهي جزء من أرض الأردن حاليا: الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٧-١٥٨.

٩٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٦١.

٩٧. فصل فوشيه بين العرب والشرقيين في عسقلان. انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٣. لوحظ أن مصطلح الشرقيين فضفاض فقد اعتبر من قتل مودود من الشرقيين مع الأخذ بالحسبان أنهم باطنية حشاشون. انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٤.

٩٨. جبران مسعود، الرائد، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٤م، ص٨٧٥.

٩٩. يقول صاحب الجستا: "ودخل الفرنج منطقة المسلمين التي تزخر بكثير من الترك والشرقيين القادمين من بيت المقدس ودمشق، وحلب وغيرها". مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥٢، ٥٩.

١٠٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٤٨.

١٠١. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥٦، انظر قاسم، الحروب الصليبية، ص٢٨.

١٠٢. معرة النعمان: مدينة حسنة كان لها سور من الحجارة، كثيرة الأشجار منسوبة للنعمان بن بشير، وكانت قديما تسمى ذات القصور. انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م). بغية الطلب في تاريخ حلب، ١١ج، تحقيق سهيل زكار، ط٢، دمشق، ١٩٨٨م، ج١، ص١٢٧-١٢٨. سيشار اليه لاحقًا: ابن العديم، بغية الطلب.

١٠٣. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٥.

١٠٤. المصدر نفسه، ص١١٠.

التخلي عن قلعتهم بل اندفعوا من أعلى جبل عندهم، وهاجموا قوات الفرنج وقتلوا عدداً منهم[١٠٥].

وقد صور صاحب الجستا المقاتلين المسلمين أنهم ذوو يقظة فائقة، وذلك في أثناء محاصرة الفرنج لأنطاكية مستشهدا على ذلك بقصة حدثت أمامه مع جنود بوهيمند (Bohemond) عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ بعد مغادرتهم منطقة الحصار بحثاً عن طعام، بقوله لهم: "ما الذي حملكم على سرعة الخروج؟...فلو حدث أن صادفكم أعداؤنا هائمين مشردين لوثبوا عليكم وقتلوكم لأنهم يترقبونكم ليلاً ونهاراً مؤملين أن يروكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجموكم على انفراد..."[١٠٦].

ومن المرجح أن الغاية التي قصدها المؤرخ المجهول من هذه الرواية إبراز دور سيده الأمير بوهيمند في حماية جنوده أكثر من الرغبة بإظهار قوة المسلمين وتلمسهم لحركات الفرنج. وقد أقر فوشيه (Fulcher) بالبسالة الفائقة لأهل عكا في الدفاع عن مدينتهم عام ١١٠٣م/٤٩٧هـ، وبدا واضحا باضطرار الملك بلدوين الأول (Baldwin I) للانسحاب منها بعد أن دمر حصادهم وبساتينهم وحدائقهم وعاد إلى يافا[١٠٧]. وفي هذا مثال على الموضوعية التي انتهجها فوشيه أحيانا.

وكشف فوشيه (Fulcher) عن مهارة المسلمين القتالية ضد الفرنج أثناء حصارهم صور عام ١١١١م واستخدامهم وسائل جديدة في الحصار ببناء برجين خشبيين، وعندما أحس الشرقيون بهلاكهم أمام الفرنج بذلوا قصارى جهدهم في المقاومة بوسائل وأساليب قتالية مماثلة، وعبر فوشيه (Fulcher) عن ذلك بقوله: "هزموا المهارة بالمهارة، وعارضوا الدهاء بالدهاء، وخدعوا الشجاعة بالشجاعة"[١٠٨].

أما الخطورة التي شكلها المسلمون ضد الفرنج فقد برزت أيضاً في أثناء حصار الفرنج لأنطاكية عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ عندما فكروا ببناء قلعة على جبل مرقب لمراقبة الترك ليأمنوا خطرهم وتطمئن قلوبهم فلا يخشونهم[١٠٩]. واعترف فوشيه (Fulcher) بإحدى المواجهات بينهم، وبين المسلمين بالقرب من بيروت عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ عندما أحاطوهم من البر والبحر، بحيث أقر أنه كان يوماً بائساً عليهم لدرجة شُلت حركتهم عن الراحة لقوله: "حاصرنا العدو من جميع النواحي...ولم نقدر أن نستريح ولا أن نسقي دوابنا...والحق أقول إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في شارتر...وكذلك تمنى الآخرون..."[١١٠]. وعكست حادثة أسر الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) ملك بيت المقدس عام ١١٢٣م/٥١٧هـ من قبل الأمير بلك[١١١] صورة من

---

١٠٥. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٣.
١٠٦. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٥، انظر: قاسم، الحروب الصليبية، ص١٩٨.
١٠٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٠.
١٠٨. المصدر نفسه، ص١٥٠.
١٠٩. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥١.
١١٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٤.
١١١. بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب، قتل عام ٥١٨هـ/١٠٢٤م في أثناء حصار منبج ودفن في حلب. انظر: ابن العديم، زبدة الحلب ص٢٨٥-٢٨٩.

صور بطولة المسلمين، وحالة الخوف التي كان يعانيها الفرنج من المسلمين لقول فوشيه (Fulcher): "وما أفرح الكفار أمر أكثر من هذا ولا أرهب المسيحيين"[١١٢].

وكان صاحب الجستا أكثر إنصافاً في وصف شجاعة المسلمين المدافعين عن أنطاكية عند بدء حصارها عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ فوصفهم أنهم من أفطن المحاربين، وأشجع المقاتلين الذين يعدون من خيرة المدافعين عن المدينة[١١٣]. ويصف استهزاء المسلمين بجيش الفرنج والتقليل من شأنهم، حينما ضحك الأمير كربوغا من الأسلحة القديمة التي استحوذ عليها المسلمون أثناء حصار أنطاكية من جيش الفرنج[١١٤]. ولعله أراد إظهار ما كان عليه الأمير كربوغا من الغرور والثقة بإحراز النصر على جيش الفرنج وربما حداثة الأسلحة التي كانت بيد المسلمين وتطورها. في حين ترى الباحثة منى حماد في هذه الرواية رأيا آخر يتمثل بتعظيم الانتصارات التي حققها الفرنجة ضد المسلمين، فهم فقراء وأسلحتهم صدئة وإمكانياتهم محدودة مع ذلك استطاعوا قهر العدو[١١٥].

ولعل من أبرز الدلائل التي تؤكد حجم المقاومة الإسلامية للفرنج اعتراف فوشيه (Fulcher) بمعاناتهم في أثناء رحلتهم، ومرورهم من طرابلس، ووصولهم إلى بيت المقدس بقوله: "يتضح أن المرء لا ينال الأمر العظيم إلا بالجهود العظيمة، وقد كان وصولنا إلى القدس أمراً عظيماً..."[١١٦]. وهذه من الإشارات التي عكف المؤرخون على تأكيدها دائما والمتمثلة في معاناتهم لبيان المقاومة التي لاقوها من المسلمين وتعظيم انتصاراتهم وعدم التقليل من إنجازاتهم.

ولم تقتصر روايات المؤلفين الفرنج على إظهار الصورة الإيجابية للمقاومة الإسلامية بل عكست الصورة السلبية، فقد صورهم صاحب الجستا أنهم مكروهون وغير مرغوب بهم من قبل الرعايا المقيمين في الدولة الإسلامية، وتمثل ذلك بموقف الأرمن والسريان الذين قاوموا المسلمين، ووضعوا لهم الكمائن فور علمهم بهزيمتهم على أبواب أنطاكية عام ١٠٩٨م/٤٩٢هـ[١١٧]. وتحمل الرواية في طياتها إيماء بظلم المسلمين رعاياهم، ولهذا كانت ردة فعلهم سلبية تجاههم.

ووصفوا المسلمين الانتهازيين الذين كانت موكلة لهم مهمة الدفاع عن البلاد بالخونة والتخاذل لمساعدتهم الفرنج في تسليم بعض المدن الإسلامية كأنطاكية لقول ريموند (Raymond) "فإن واحداً من الأتراك المحاصرين وثق في أمرائنا إلى حد أنه كان سيسلمنا أنطاكية"[١١٨] وصرح

١١٢. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٩٥.
١١٣. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٦٢.
١١٤. المصدر نفسه، ص٧٤.
١١٥. حماد، صورة المسلمين، ص٢٥٧.
١١٦. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨٢.
١١٧. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥٩. في حين يذكر ريموند آجيل أن الأرمن واليونان في أنطاكية كانوا يفرون للفرنج بخيولهم وأسلحتهم. انظر ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١١٠. انظر كيف خرج الأرمن لاستقبال الفرنج عند دخولهم للرها لأنهم جاؤوا لحمايتهم من الأتراك. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٣.
١١٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠١.

المؤرخ نفسه بخيانته بعد مجيء الفرنج لإحدى تلال أنطاكية للتأكد من حقيقة تسليم تلك المدينة لهم بقوله "أتى رسول من التركي الخائن وأمرهم[١١٩] "لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح"[١٢٠]. في حين نجد فوشيه (Fulcher) يكشف عن التفاصيل الدقيقة لتلك المؤامرة والتخطيط لها بين هذا التركي ورجال الفرنج لتمكينهم من الاستيلاء على المدينة حيث برزت عدم موضوعيته واضحة من خلال نسجه قصة خيالية أن الرب جاء في المنام لرجل تركي ودعاه لتسليم المدينة للمسيحيين[١٢١]. وقد بدا واضحا من هذه الرواية محاولة المؤرخين الفرنج إلصاق تهمة الخيانة لرجل تركي مسلم، وفي هذا تجن بدليل مخالفة المصادر الإسلامية هذا القول؛ حيث أشار ابن القلانسي إلى أن الفرنج تمكنوا من أنطاكية بتدبير الزراد وهو رجل أرمني واسمه فيروز أي غير مسلم، وأشار ابن الأثير أن مستحفظ البرج الذي أدخل الفرنج كان زرادا يعرف بروزبه، في حين أشار ابن العديم إلى أنه رجل يعرف بالزراد من أهل أنطاكية[١٢٢] وفي هذا نفي واضح لأن يكون من سلم أنطاكية للفرنج مسلما بل أرمنيا.

وكثيرةٌ هي الأوصاف التي أطلقها الكتّاب الفرنج على المسلمين في أثناء المواجهة معهم كوصفهم بالمنهزمين[١٢٣]، والضعفاء[١٢٤]؛ معللين ذلك بتباطئهم في الرد على الفرنج[١٢٥]. فيصورهم ريموند بعد دخول الفرنج لمعرة النعمان أنهم كانوا يختبئون في كهوف تحت الأرض[١٢٦]. ووصل

١١٩. أي الفرنج.

١٢٠. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١١٩.

١٢١. يقول فوشيه: "لقد ظهر الرب لتركي معين، كانت قد كتبت عليه بركة ا ، وقال له: انهض أيها النائم، إنني آمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين، استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سرا". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٧-٥٨. لمزيد من التفاصيل عن هذه المؤامرة وخيانة الزراد وعلاقته بالأمير بوهيمند في المصادر العربية انظر ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦، ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٢٧٤-٢٧٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٣٩.

١٢٢. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦، ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٢٧٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٣٩.

١٢٣. انظر الهزيمة التي وقعت في مدينة عزاز عام ١١٢٥م/٥١٩هـ بين الفرنج والبرسقي وعدم قدرة فوشيه على إحصاء عدد القتلى من المسلمين لقوله: "واحمرت الحقول والطرقات من دم الهالكين وتلألأت دروع الصدور". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢٢٥. انظر: أيضاً تصوير المسلمين بالمنهزمين في معركة أنطاكية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٤.

١٢٤. ذكر ريموند أن ثلاثة آلاف من الفرنج قضوا على ثمانية وأربعين من الأعداء أو الوثنيين، وذلك في أثناء حصار أنطاكية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٩٠.

١٢٥. انظر قول فوشيه في المسلمين بعد تركهم مدينة قيصرية وتحولهم نحو الرملة عام ١١٠١م/٤٩٥هـ: "وقد توقعنا لمدة أربعة وعشرين يوماً أن يهاجمنا رجال عسقلان وبابليون (مصر) الذين تجمعوا لهذا القصد". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٦. وقد كشفت الباحثة منى حماد عن أن بابليون (Babylon) مأخوذة من الإنجيل، ويعتقد بعضهم أن أصل التسمية عائد لوجود قلعة قديمة قرب القاهرة بنيت من قبل أحد الفراعنة لاستيعاب المرتزقة. انظر: حماد، صورة المسلمين، ص٢٥٦.

١٢٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٩

الضعف الذي حل بالقوات الإسلامية برأي فوشيه (Fulcher) إلى أنهم اختبؤوا في شجيرات وتحصينات مدينة شيزر عام ١١١١م/٥٠٥هـ فور سماعهم بتقدم الفرنج نحوهم(١٢٧). ومن المرجح أنه لم يكن وراء إظهار هذه الصورة الهزيلة للمسلمين إلا العاطفة الدينية والوهم الذي سيطر على الفرنج أنفسهم، وأن مرد تفوقهم على المسلمين حماية الرب لهم، وجزء من المعجزات الكبرى(١٢٨).

وتتكرر ظاهرة نعت المسلمين على لسان الفرنج بأوصاف سلبية ومهينة متعددة ترمي للغرض نفسه، ولكن بمسميات كثيرة مختلفة محاولة منهم لإظهار الفرنج بمظهر القوة والمسلمين بحالة من الخوف(١٢٩) والجزع في أماكن أخرى(١٣٠)، والهروب في ثانية(١٣١)، والجبن(١٣٢) والهلع(١٣٣). ويطلق الكتّاب الفرنج أوصافًا أخرى مطابقة للهلع وهو "الذعر"(١٣٤) والإدبار من المعركة حيث يصف صاحب الجستا إدبارهم في أثناء زحف الفرنج نحو أنطاكية بوصف بليغ بقوله: "فتقدم جند الرب نحو المسلمين وحملوا عليهم، فأسرعوا مدبرين غير مقبلين أشبه بسهم قد انطلق من قوسه إثر ضربة قوية صائبة...".(١٣٥).

وتطاول ريموند (Raymond) على طبيعة صدق المقاومة الإسلامية وقدسيتها ونقاوتها متهما المسلمين بأنهم كانوا يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى ا عليه وسلم)(١٣٦)،

---

١٢٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٤٩.

١٢٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٩.

١٢٩. المصدر نفسه، ص١٨٢.

١٣٠. يقول صاحب الجستا عن المسلمين عند حصار أنطاكية: "أما أعداؤنا الترك، الذين كانوا داخل المدينة فقد استولى عليهم الجزع منا استيلاء شديداً أبقاهم خمسة عشر يوماً جامدين لا يحركون ساكناً". مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥٠.

١٣١. انظر هذه الحالة للمسلمين في أثناء الزحف على أنطاكية حيث انهزم الترك، وهربوا مدة أربعة أيام في حين جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان فر إلى أزنيق حيث لاقاه عشرة آلاف عربي، فوبخوه بقولهم له: "أيها الشقي، ويا أتعس الخلق جميعاً، ما الذي حملك على الهروب...". انظر مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٢، انظر هربهم أيضاً بعد حصار نيقية حيث أفرد فوشيه باباً أسماه هرب الأتراك وانتصار المسيحيين. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٠. أعتقد أن سليمان بن سليمان الذي قصده فوشيه في النص هو قليج أرسلان ابن سليمان سلطان سلاجقة الروم ١٠٩٢-١١٠٧م/٤٨٥-٥٠١هـ.

١٣٢. وصفهم فوشيه بهذا الوصف لتركهم مدنهم واختبائهم بالكهوف. انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٨. انظر كيف صور الأمير كربوغا أثناء احتلال أنطاكيا ووصفه بالجبن بقوله: "فر كربوقا رشيقًا كالغزال، ذلك الذي طالما ذبح الفرنجة بالكلام وبالوعيد والتهديد" الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٣.

١٣٣. انظر الهلع الذي أصاب المسلمين عندما أمر الملك بلدوين الأول جنده بإلقاء رأس الأمير جمال الدين أمير عسقلان على ظهر أسطول المصريين المرابطين أمام يافا عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٩.

١٣٤. انظر فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٠، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٨-١١٠.

١٣٥. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٤.

١٣٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٥.

وهذا تشكيك واضح بإيمان المسلمين ومعتقداتهم الدينية. وجعلهم في حصن الأكراد يعجلون بالفرار لدرجة تركهم موتاهم دون دفن(١٣٧). واعتبر ريموند (Raymond) أن سقوط المدن الإسلامية يكمن وراء خوف المسلمين من الفرنج، وأكد ذلك بقوله: "لنزحف إلى بيت المقدس، ومن المؤكد أن الرب سيسلمها لنا، وعند ذلك فقط فإن المدن الأخرى التي تقع في طريقنا مثل جبلة، وطرابلس...سيجلو عنها سكانها خوفاً من موجة الفرنجة الجديدة..." (١٣٨). وفي هذا إبراز واضح للعاطفة الدينية إذ يتم تفسير الحوادث حسب المعطيات الدينية. وبالغ صاحب الجستا بحالة المسلمين بوصفهم بالمرعوبين عندما شاهدوا النجدة الإمبراطورية للفرنج جنوب نيقية لقوله: "وما كادوا يعلمون أنها نجدة امبراطورية حتى استبد بهم الرعب القاتل، واستخرطوا في البكاء، وعلت أصواتهم بالنحيب، بينما كان الفرنجة فرحين يمجدون الرب"(١٣٩). واستنكر فوشيه (Fulcher) هروب الأتراك أمام الفرنج بعد سقوط أنطاكية ١٠٩٨م/٤٩٢هـ على الرغم من امتلاكهم لجياد سريعة مميزة(١٤٠). وهذه محاولة أخرى منه لإظهار المسلمين بمظهر الضعف والجبن والخوف لدرجة تشبيههم بالنساء لبكائهم وخوفهم وهذه مبالغة واضحة مردها الميول عند المؤلفين الفرنج.

وقد دلت روايات المؤلفين الفرنج على عدم موضوعية واضحة في تقييم القوى الإسلامية حين مقارنتها بالقوة الفرنجية بهدف إظهار قوة الفرنج، مقابل ضعف قوة المسلمين لقول ريموند (Raymond) أثناء حصار أنطاكية: "ومع التفوق العددي فإنهم لم يجرحوا أيا من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا، ولا شك بسبب حماية الحربة المقدسة لنا"(١٤١)، كما رصد فوشيه (Fulcher) إحدى المواجهات قبل حصار الفرنج لأنطاكية بقوله: "في إحدى الأيام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك، وقد كانت قوة الرب واضحة جلية هنا، ورجع كل رجالنا سالمين إلا واحدا أصيب بجراح"(١٤٢). ووصل الأمر بريموند (Raymond) للقول بأن عدم قدرة المسلمين على استخدام السيف أدت بهم إلى الفرار لقوله "ولما كان الأتراك لم يألفوا القتال بالسيف فقد ركنوا إلى الفرار، ومع ذلك فإن كونت الفلاندر لم يضع سيفه حتى قتل مائة من أعدائه"(١٤٣).

رصد شهود العيان الفرنج الوسائل التي استخدمها المسلمون في مقاومتهم للفرنج، كمنعهم الماء عام ١٠٩٦م/٤٩٠هـ أثناء تواجدهم بقلعة Exerogorgo القريبة من نيقية(١٤٤) مما اضطرهم

١٣٧. المصدر نفسه، ص١٨٥.
١٣٨. المصدر نفسه، ص١٨٢.
١٣٩. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٧. انظر أيضاً حالة الرعب التي سيطرت على المسلمين في أثناء دخول الفرنج لبيت المقدس حين ولوا الأدبار نحو أزقة المدينة وشوارعها الضيقة. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٤.
١٤٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٣.
١٤١. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٤٥-١٤٦.
١٤٢. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٤.
١٤٣. حصلت هذه المواجهة في أثناء حصار أنطاكية. انظر ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٨٩.
١٤٤. نيقية: مدينة من أعمال إسطنبول على البر الشرقي، وهي على تخوم بلاد الروم الشمالية. انظر: ياقوت،

لإطفاء ظمئهم بعصر عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها[١٤٥]. وهذه الرواية غاية في المبالغة، ما هي إلا كناية عن صبر الفرنج ومقاومتهم للمسلمين وتضحياتهم في سبيل المسيح، واستخدموا الحبال لسحب الفرنج المحاصرين لمدينة نيقية عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ على حد وصف صاحب الجستا[١٤٦] وإن صحت هذه الروايات فإنها تدل على ما وصل إليه المسلمون من تطور في أساليب القتال.

واستخدم المسلمون عندما حاصرهم الفرنج في معرة النعمان آلة لقذف الحصن الذي بناه الفرنج بحجارة ضخمة، ثم أخذوا يرمونه بالنار الإغريقية[١٤٧] بهدف حرق الحصن وهدمه[١٤٨]. وأشار فوشيه (Fulcher) إلى استخدامهم أسلوب الدوران حولهم في معركة الرملة[١٤٩] عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ[١٥٠]، وعرفوا بناء الأبراج عندما حاصرهم الملك بلدوين الأول (Baldwin I) في مدينة صور عام ١١١١م/٥٠٥هـ[١٥١]. وأشعلوا النار حول الفرنج حتى تحصد النيران من لا يرهبه السيف[١٥٢]، واستخدموا في معرة النعمان ضد الفرنج النبال، وخلايا النحل[١٥٣]. وهذا مؤشر على أن خلايا النحل من الوسائل القتالية الجديدة التي برع المسلمون في استخدامها.

ووصف فوشيه (Fulcher) تحصينات المسلمين في قلعة جراس (جرش)[١٥٤] التي أمر ملك دمشق طغتكين بتشييدها للتحرش بالفرنج عام ١١٢١م/٥١٥هـ[١٥٥].

أما في ما يتعلق بالكمائن فقد برع المؤرخون الفرنج في وصف الكمائن التي نصبها المسلمون للإيقاع بخصومهم من الإفرنج، وخاصة تلك التي كانت عند دخولهم لأنطاكية[١٥٦]. ورصد فوشيه

معجم البلدان، مج٤، ص٤٢٤-٤٢٥.

١٤٥. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٢٠.

١٤٦. المصدر نفسه، ص٣٤.

١٤٧. كما استخدم المسلمون النار عندما حاصرهم الملك بلدوين الأول في مدينة صور عام ١١١١م/٥٠٥هـ. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٠.

١٤٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٥.

١٤٩. الرملة: كورة من فلسطين، وهي مدينة عظيمة. بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلاً. انظر ياقوت، معجم البلدان، مج٢، ص٤٢١.

١٥٠. يقول فوشيه: "أحاط بنا الأعداء آملين أن يبثوا الفوضى بيننا ويحطمونا كلية، وأطلق رماة السهام الأتراك وهم يدورون حولنا كعادتهم، وابلاً من السهام...". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٨.

١٥١. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٠.

١٥٢. تم استخدام هذا الأسلوب في أنطاكية. انظر: ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٤٥، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج١، ص٣٥٣.

١٥٣. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٨.

١٥٤. ذكر الشارتري أنها تقع على مقربة من جبل جلعاد. انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٩١-١٩٢. أما ياقوت فذكر أنها مدينة عظيمة في شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق. ياقوت، معجم البلدان، مج٢، ص٤٨.

١٥٥. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٩١-١٩٢.

١٥٦. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٥ انظر أيضاً الكمين الذي كمنه الأتراك القاطنون في مدينة سيا

(Fulcher) فرقاً خاصة أعدها المسلمون لتحسس أخبار الفرنج قبل مقاتلتهم؛ حيث أشار لرجل تركي يدعى أمير داليس، وصفه بأنه فارس مقدام رأى جموع الفرنج تتقدم نحو أنطاكية عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ فأخبر الأمير كربوغا بها[١٥٧]. وهذا يدل على الخبرة العسكرية عند المسلمين في القتال وتمرسهم في الحروب. وقد انتقد ريموند (Raymond) المسلمين في إحدى كمائنهم ضد الفرنج إثر خروجهم من معرة النعمان؛ وذلك لمهاجمتهم مؤخرة جيشهم واقتناصهم الفقراء والضعفاء منهم، وأخذ أمتعتهم[١٥٨]. وهذه محاولة من محاولات المؤرخين الفرنج لإلصاق سمة الغدر لجيش المسلمين، وربما لاتهامهم بالهمجية واللصوصية. كما وصف فوشيه (Fulcher) حالة الخوف التي أصابت هيو أعظم نبلاء الملك بلدوين (Baldwin I) أثناء انتقاله من أرسوف[١٥٩] إلى يافا[١٦٠] عام ١١٠٢م/٤٩٦هـ بسبب الشراك التي نصبها المسلمون لهم[١٦١].
كما أورد المؤرخون الفرنج خططاً كثيرة للمسلمين للإيقاع بالفرنج في يافا عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ[١٦٢]، ونعتهم فوشيه (Fulcher) في مكان آخر أنهم أشبه بالعصابات، وذلك أثناء شروع الملك بلدوين الأول (Baldwin I) والأمير تنكريد (Tancred) بالمسير لمقاومة الأتراك المحاصرين للرها عام ١١١٠م/٥٠٤هـ بقوله: "وكان الأتراك قد أرسلوا العصابات تطوف البلاد متطلعة لوصول الملك..."[١٦٣].
وكشف فوشيه (Fulcher) عما كان يتمتع به المسلمون من ذكاء[١٦٤] ودهاء[١٦٥] وحيل[١٦٦] أثناء قتالهم الفرنج حفاظاً على أرواحهم، ونكاية ببطش الفرنج بهم، والتي وصفها بـ "ألاعيب الشرقيين"، ومنها وضعهم الدنانير الذهبية في أمعائهم من خلال ابتلاعها وهم على قيد الحياة مما

مويساتا الحصينة عندما علموا بالطريق الذي سيسلكه الفرنج تجاه الرها. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٢. وانظر كيف يصف فوشيه طرق المسلمين في قتل الفرنج وملاحقتهم في أثناء مسير الملك بلدوين الأول من أنطاكية إلى بانياس عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ بقوله: "وقتل كثير من الفرنجة على أيدي الشرقيين المتربصين في الأزقة الضيقة على الطريق". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨١-٨٢.

١٥٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٢.

١٥٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٢.

١٥٩. أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. ياقوت، معجم البلدان، مج١، ص١٢٦.

١٦٠. يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. ياقوت، معجم البلدان، مج٤، ص٤٩٣-٤٩٤.

١٦١. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٢٦-١٢٧.

١٦٢. انظر التفاصيل: المصدر نفسه، ص١٣٨.

١٦٣. المصدر نفسه، ص١٤٦.

١٦٤. انظر هذا الوصف في أثناء حديثه عن حملة الملك بلدوين الثاني لفلسطين عام ١١٢٥م/٥١٩هـ إذ لم يجد خيالة الفرنج الذين كانوا في المقدمة أي فريسة حول مدينة عسقلان؛ حيث أخفاها أهلُها بحكمة. المصدر نفسه، ص٢٢٨.

١٦٥. انظر دهاء المسلمين عندما عجزوا عن احتلال قلعة تل باشر، فقد استدرجوا الملك تنكريد لقتالهم. المصدر نفسه، ص١٢٦-١٢٧.

١٦٦. انظر إخفاء نساء قيصرية بفلسطين الدنانير الذهبية بأحشائهن، المصدر نفسه، ص١١٥.

دعا الفرنج لبقر بطونهم بعد موتهم بهدف استخراجها[١٦٧]. وهذه صورة حقيقية لطبيعة العنف والبطش الذي مارسه الفرنج بحق المسلمين في هذه المرحلة من مراحل الصراع، وليس لها ما يبررها سوى الكره والحقد الذي كان يضمره الفرنج للمسلمين. كما رصد فوشيه (Fulcher) مواطن الاستهتار والضعف في التخطيط الاستراتيجي العسكري عند المسلمين، الذي تمثل في موقف كربوغا في أثناء حصار الفرنج لأنطاكية والذي أسفر عن احتلالهم لها، وكان حواره مع أحد أمرائه المدعو داليس دليلا واضحا على ذلك[١٦٨].

مشاهد القتل الدموية بين صفوف المسلمين وموقف الفرنج منها

فصل المؤلفون الفرنج في وصف ضحايا الصراع الفرنجي-الإسلامي، مركزين على الجانب الإسلامي؛ حيث وصفوهم بأوصاف لا تليق بهم كإطلاق مصطلح "جثث المسلمين"[١٦٩]. في حين وصفت مقابرهم بأنها "مقابر شيطانية"[١٧٠]، كيف لا وهم برأيهم عبارة عن كفرة[١٧١] وأعداء للرب والمسيحية المقدسة[١٧٢]، فقد كان أمراً بدهياً أن يكون قتلهم تقرباً من الرب، ودفاعاً عن المقدسات وأمراً مرغوباً به. وحاول صاحب الجستا تشويه صورة المسلمين بإظهارهم بصورة مذلة محزنة نتيجة بكائهم على قتلاهم أثناء محاصرة أنطاكية بقوله: "كما حملوا الرؤوس المقطوعة إلى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى...فلما رأى الترك هذا المنظر ران على قلوبهم الحزن المقيم، وكانوا يبكون كل يوم قتلاهم، ولم يعد لهم سوى النحيب والعويل"[١٧٣]. وفي هذا شيء من المبالغة وعدم الموضوعية في تصوير حالة المسلمين.

وصور ريموند (Raymond) حالة الاستهتار بشهداء المسلمين من خلال قذف ضحاياهم في المستنقعات لدرجة تعفنها في تلك الأماكن، بل وجعلها قوتاً لجياعهم مثلما حدث حينما أصابتهم المجاعة في معرة النعمان، فكان منظرهم مثيرا للاشمئزاز للفرنجة وللغرباء معاً[١٧٤]. وعبر صاحب الجستا عن الاستهتار بشهداء المسلمين بطريقة أخرى بنبش القبور والعبث بها لقوله: "ولما علم رجالنا أن الترك لحدوا موتاهم جمعوا عدتهم، وهبوا مهطعين مسرعين إلى تلك المقبرة الشيطانية، وأمروا بتحطيم الأضرحة، ونبشها وطرح الجثث بعيدا"[١٧٥] وأمام أسوار نيقية قام

١٦٧. المصدر نفسه، ص٧٥.
١٦٨. انظر الحوار الدائر بينهما. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٢-٦٣، انظر أيضا ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٤٤، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٧١.
١٦٩. انظر ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٧١؛ مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٧٠.
١٧٠. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٦٣.
١٧١. المصدر نفسه، ص١١١.
١٧٢. المصدر نفسه، ص٤٢، ٥٣، ٩٠.
١٧٣. المصدر نفسه، ص٦٣.
١٧٤. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٧١؛ انظر أيضاً وصف فوشيه (Fulcher) كيف كان يأكل الفرنج لحوم المسلمين إثر إصابتهم بالجوع في البارة ومعرة النعمان حيث يطبخونها ويتم أكلها بوحشية قبل طهيها. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٨.
١٧٥. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٦٣.

الفرنج بوضع رؤوس القتلى من الأتراك في المقاليع وقذفها في المدينة لإثارة الذعر بين سكانها[١٧٦] وهذا دليل على الحقد والكره الذي يكنه الفرنج للمسلمين.

ورسم المؤلفون الفرنج صورة واضحة لفضائح التمثيل بالمسلمين في أثناء اقتحامهم المدن الإسلامية، وبدون أدنى درجات الرحمة، كما في بيت المقدس لقول فوشيه (Fulcher): "وبسيوف مشرعة، ركض رجالنا في المدينة لا يستبقون أحداً، حتى أولئك الذين يستعطفون الرحمة، وتساقط الجميع كما يتساقط التفاح المتعفن من الأغصان المهزوزة..."[١٧٧] وهذا يدل على عدم الرحمة، وقد اعترف فوشيه (Fulcher) أنه لم يبق منهم أحد، ولم يرحم الفرنج امرأة ولا طفلاً[١٧٨].

وصور ريموند (Raymond) وسائل قتل المسلمين في بيت المقدس بقوله: "كان المرء يستطيع أن يرى أعمالاً مدهشة، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين برحمة، بينما اخترقت الأخرى الأسهم الموجهة من الأبراج، وبينما عذب آخرون لوقت طويل، وأحرقوا حتى الموت في اللهب..." [١٧٩]. والميول السياسية واضحة في الرواية بهدف إبراز بطولات الفرنج ليس إلا.

وعبر المؤلفون الفرنج عن الأعداد الضخمة من قتلى المسلمين بصور واستعارات كثيرة منها: إشارتهم لإفناء مواطني مدينتي البارة ومعرة النعمان عن بكرة أبيهما[١٨٠]، وصعوبة السير فيها نظراً للرائحة المنتنة المتصاعدة من الجثث التي تملأ شعب المدينة ومسالكها[١٨١]. أما في طرابلس فقد أشاروا لكثرة القتلى من خلال تغير لون مياهها يقول صاحب الجستا: "واستمر القتل في الكفرة وتدفقت الدماء حتى اصطبغت المياه التي تغذي المدينة والآبار باللون الأحمر القاني"[١٨٢]. في حين وصف ما حدث في بيت المقدس على أنه "مذبحة"[١٨٣].

لم يتحر ريموند (Raymond) الموضوعية في نقله لكثير من أحداث المواجهات بين الفرنج والمسلمين أثناء حصار أنطاكية، ولهذا برزت مبالغته واضحة بإظهار تفوق الفرنج على المسلمين على الرغم من أعدادهم القليلة، وتمثل ذلك بقوله في إحدى المواجهات قبيل حصار أنطاكية: "ولولا التواضع لحسبت هذه المعركة أعظم من الحرب المقابية لأن ماكابيوس قضى بثلاثة آلاف على ثمانية وأربعين ألفًا من أعدائه، بينما دحر فرساننا الأربعمائة ستين ألفًا من الوثنيين"[١٨٤].

---

١٧٦. المصدر نفسه، ص٣٥.
١٧٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٥.
١٧٨. المصدر نفسه، ص٧٥.
١٧٩. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٧.
١٨٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٨.
١٨١. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٧٠؛ يصف صاحب الجستا جثث المسلمين في المعرة: "ولم تعد ثم ناحية من المدينة خالية من جُثث المسلمين وندر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يطأ تلك الجثث". مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٦.
١٨٢. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١١١-١١٢.
١٨٣. المصدر نفسه، ص١١٨.
١٨٤. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٩٠.

وأكد فوشيه (Fulcher) على هذه النظرة أثناء حصارهم لأنطاكية: "وبعون ا ورحمته استطعنا نحن الأقل عددا أن نجبرهم على التكتل، وبيد الرب اليمنى تقاتل معنا، أجبرنا الأتراك بعد تجمعهم أن يهربوا ويتخلوا عن معسكراتهم وكل ما تحتويه"[١٨٥]. وبرز ذلك في أثناء معركة بين المسيحيين والأتراك عام ١١٠٢م قرب الرملة بقوله: "ولم يفق عدد فرساننا المائتين وقد أحاط بهم عشرون ألفا"[١٨٦].

وصف ريموند (Raymond) المجزرة التي ارتكبها الفرنج بحق المسلمين في بيت المقدس بقوله: "وتكدست في الطرقات والبيوت الرؤوس والأيدي والأقدام، وفعلاً كان الفرسان والرجال يجرون جيئةً وذهاباً فوق الجثث"[١٨٧]. وقد تمثلت عدم موضوعية ريموند (Raymond) ومبالغته في طرحه لهذه المسألة معتبرا إراقة دماء المسلمين عدالة إلهية بقوله: "فيكفي أن أحكي أنه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الفرنجة بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم، وفي رأيي أن في هذا عدالة إلهية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبوا الرب هناك لسنوات كثيرة"[١٨٨]. أما صاحب الجستا فيصف الدماء التي أهرقت في بيت المقدس بقوله: "...حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى"[١٨٩]. ويظهر أن هذا التصور لهؤلاء الضحايا يكمن في المصير والبشاعة التي لاقاها ضحايا المسلمين بحيث كانت بعيدة عن التصور والتصديق أكثر ما يكمن في عددهم[١٩٠]. وقد حكم صاحب الجستا على قتلى المسلمين أن مصيرهم النار لقوله: "أما الذين لم يسعفهم الهرب...فقد لاقوا في هذه البقعة الموت الأبدي، وذهبوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته...""[١٩١]. في حين صعد قتلاهم: "إلى السماء حيث لبسوا ثياب الاستشهاد البيضاء"[١٩٢]. وعلى الرغم من أن المؤرخ يجب أن يكون محايدا، فلا يصدر أحكامه جزافا دون تثبت. ومع ذلك فقد تجاوز الكتّاب الفرنج ذلك بأحكامهم هذه. أما ريموند (Raymond) فقد اعتبر الشهادة عند المسلمين خيارا أهوج لقوله: "فعندما كان جودفري في طريقه إلى أنطاكية...وهاجم العدو بشجاعة، ولكن المسلمين الذين آثروا-مجبرين- الاختيار الأهوج للموت على النجاة بالفرار، اختاروا أن يترجل بعضهم"[١٩٣]. والرواية تعبر عن كراهية وتعصب واضحين من قبل الفرنج. وقد علل أحد الباحثين سبب عدم تفصيل المؤرخ

١٨٥. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٦.
١٨٦. المصدر نفسه، ص١٢٥.
١٨٧. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٧، انظر أيضاً رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج١، ص٤٠٤.
١٨٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٧.
١٨٩. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١١٨، انظر عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٤٣.
١٩٠. معلوف، الحروب الصليبية، ص٦٣.
١٩١. انظر هذه الصورة لعدد من قتلى المسلمين عند باب أنطاكية عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٦٢.
١٩٢. المصدر نفسه، ص٦١.
١٩٣. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٤.

المجهول في وصف قتلى المسلمين كغيره من المؤرخين المعاصرين، وتجاوزه هذا الأمر أنها من الأمور المألوفة التي لا تستحق الذكر، وأنها ليست جديرة بالمدح والتمجيد، وإن ذكرها فقد كانت على سبيل عدم المبالاة(١٩٤).

ولم تقتصر الصورة التي رسمها مؤرخو الفرنج لقتلى المسلمين فقط، بل امتد وصفهم ليشمل قتلى الفرنج حيث صوروا قتلهم للفرنج بصورة بشعة(١٩٥) مظهرين الطرق التي استخدمها المسلمون لقتلهم(١٩٦). وقد انتقد ريموند (Raymond) المسلمين بقتلهم البؤساء والفقراء من الفرنج قبل الاستيلاء على أنطاكية بقوله: "قتلوا حاملي الطعام على طول الساحل وضفاف الأنهار، وتركوهم للوحوش والجوارح"(١٩٧). وهذه محاولة أخرى من مؤرخي الفرنج للطعن بمقاتلي المسلمين، وتلبيسهم صفة الغدر، وعدم الرحمة، وعدم القدرة على مواجهة المسلمين واقتصارهم على الضعفاء.

العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المسلمين والفرنج

كان أمراً طبيعياً أن يسود العلاقة الفرنجية الإسلامية شيء من التوتر نتيجة سياسة العنف والقتل التي ارتكبها الفرنج بحق المسلمين في عدد من المدن الإسلامية، لكن هذا لم يمنع أن يلجأ بعض الأمراء لاستخدام الدبلوماسية في التعامل مع الفرنج لتلافي خطرهم؛ وقد فسر أمين معلوف مرد تلك السياسة إلى حادثة المعرة التي أدت إلى إرهاب الأهالي بحيث لا يقاومون الفرنج إلا إذا أكرهوا على ذلك، ونتيجة لسقوط تلك المدن لجأ الأمراء لإرسال وفودٍ من عندهم(١٩٨).

وقد تحدث صاحب الجستا عن وجود سفارات بين المسلمين والفرنج أثناء الحملة الفرنجية الأولى كان أولهم أمير شيزر الذي أرسل للكونت ريمون الصنجلي (Saint Gilles) رسالة تضمنت تعهده بمساعدة جيشه قبل الزحف لبيت المقدس، وموادعته، والعمل على راحة حجاجه، وحتى مشاطرته أملاكه. وأرسل أمير حمص رسالة مماثلة له، ومعها بعض الجياد والمال، وتمكن من عقد معاهدة معه (١٩٩).

وعبرت رسالة أمير طرابلس للكونت ريمون الصنجلي(Saint Gilles) عن استجداء واستعطاف

---

١٩٤. العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٣٣.

١٩٥. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧، ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٦.

١٩٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٢.

١٩٧. المصدر نفسه، ص١٠٨.

١٩٨. معلوف، الحروب الصليبية، ص٦٥، أشارت الباحثة هالا وريكات أن الصليبيين تمكنوا من إنشاء مملكتهم بفعل حالة الرعب والهستيريا التي سادت المشرق العربي بعد انتشار القصص والأخبار عن وحشية الصليبيين وتأخر حركة المقاومة. وريكات، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٢٩. وقد صور رنسيمان مرد هذه السياسة العربية بأنه متأت من أن بعض الأسر المحلية العربية في الشام شعرت بابتهاج نتيجة تراجع قوة الأتراك السلاجقة، فأظهرت استعدادها لعقد اتفاقيات مع الفرنج. انظر رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج١، ص٣٧٦.

١٩٩. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١٠٧، ١٠٩.

إسلامي واضح للفرنج لعقد اتفاقية معهم، إذ سأله الموادعة والاتفاق والارتباط برباط المودة إذا أحب، وأنفذ إليه هدايا وأموالا إلا أن الكونت اشترط عليه المسالمة باعتناقه النصرانية[٢٠٠].

وعندما تحدث فوشيه (Fulcher) عن المفاوضات بين أهل أرسوف والفرنج عام ١١٠١م/٤٩٥هـ أشار إلى أن الذي دفعهم لذلك عجزهم الدفاع عن أنفسهم مما دعاهم لمفاوضته بدهاء، والاستسلام بعد ثلاثة أيام، ومغادرتهم المدينة إلى عسقلان وهم "مكسورو الخاطر"[٢٠١]. وقد أظهرت هذه الرواية المسلمين بصورة المجبورين والمغلوبين على أمرهم. في حين أظهرت المراسلات بين المسلمين والامبراطور البيزنطي ألكسس كومنين عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ أثناء محاصرة نيقية المسلمين بصورة مهينة وذليلة عندما يئسوا وفقدوا الأمل من أي مساعدة عسكرية من نيقية[٢٠٢].

وقد ألصق ريموند (Raymond) بالفاطميين صفة الخيانة عند إشارته لتردد ملكهم[٢٠٣] بين "اختيارنا أو اختيار الأتراك"[٢٠٤]، وبرر ريموند حكمه هذا بوجود صفقة متبادلة بينهم وبين الفرنج إثر طلب الفرنج تسلمهم بيت المقدس، ومكافأة الفاطميين على ذلك[٢٠٥]، وهذا يعني تقديم الفاطميين مصلحتهم الخاصة على مصلحة المسلمين عامة، ولكن لم يثبت وجود اتفاقية موقعة بين الطرفين الفاطمي والفرنجي حتى في المصادر الأجنبية[٢٠٦]، إلا أن ذلك لا ينفي تواجد رسل الفاطميين في المعسكر الفرنجي خارج أسوار أنطاكية.

وظهر المسلمون بعيون شهود العيان الفرنج بصورة المقايضين والمفاوضين البارعين للحيلولة دون تعرض بلادهم للخطر مثلما حدث مع حاكم جبلة[٢٠٧] الذي أعطى الفرنج المال والذهب والخيول والنبيذ للحيلولة دون حصار مدينته. ونجد أن عروضا أخرى مماثلة يقدمها أمير طرابلس

٢٠٠. المصدر نفسه، ص١٠٩.
٢٠١. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٣.
٢٠٢. أظهر المسلمون للامبراطور استعدادهم لتسليم نيقية شريطة السماح لهم بعودة نسائهم وأطفالهم معهم وخروجهم سالمين. انظر مؤلف مجهول، تاريخ الفرنجة، ص٣٧. في حين نجد فوشيه يتحدث عن اتفاقية سرية بينهما. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧. وعن السبب الذي دعا المسلمين إلى القيام بهذا الأمر، انظر: عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٦٣، حبشي، الحرب الصليبية، ص٨٧.
٢٠٣. والمقصود به هنا الوزير الفاطمي الأفضل بدر الدين الجمالي الذي استأثر بالنفوذ الفاطمي في مصر دون الخليفة.
٢٠٤. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٧، يقصد بالأتراك هنا السلاجقة حيث كان خلاف مذهبي وسياسي بين الفاطميين والسلاجقة.
٢٠٥. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٧، انظر التفاصيل: عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص٦٠. سيشار اليه لاحقًا: توفيق، الدبلوماسية الإسلامية. برر عطية هذه الاتصالات من قبل الفاطميين للخلافات بينهم وبين السلاجقة ولعدم فهمهم لطبيعة الحركة الصليبية واعتبارها مجرد حملة بيزنطية ضد السلاجقة لهذا طلبوا ضمانات وطمأنة على أملاك الأفضل في فلسطين. عطية، إمارة أنطاكية، ص١١٧.
٢٠٦. توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص٦٠، عطية، إمارة أنطاكية، ص١١٧.
٢٠٧. جَبَلَة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت، معجم البلدان، مج٢، ص٣١.

بالإضافة للمؤونة والملابس، وإعادة أسرى الفرنج الذين بحوزته مقابل تخليهم عن حصار مدينته أيضاً(٢٠٨). وما ذلك إلا تعبير عن ضعف المسلمين وقوة الفرنج.

وقد تحدث صاحب الجستا عن اتفاقية بين القائد القائم على حراسة قلعة أنطاكية قبل سقوطها الأمير أحمد بن مروان، وبين الأمير بوهيمند (Bohemond) تسمح لمن يريد اعتناق المسيحية بالإقامة معه في حين سمحت للرافضين بالدخول بالمسيحية بالخروج سالمين من غير ضرر(٢٠٩). وبالغ صاحب الجستا بإشارته لتطبيق الأمير بوهيمند بنود هذه الاتفاقية على أرض الواقع بتعميد عدد من المسلمين بقوله: "ولم تنقض إلا أيام قلائل حتى عمد القائد المسلم وجميع من آثروا الإيمان بالمسيح،..."(٢١٠) وفي هذا محاولة لتشويه صورة بعض المسلمين مقابل بعض الإغراءات الدنيوية. كما شكك أحد الباحثين في صحة خروج جزء من الأهالي الذين رفضوا اعتناق المسيحية دون أن يلحقهم أي ضرر(٢١١).

الجانب الاقتصادي والاجتماعي والديني للمسلمين في المصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الفرنجية الأولى

رصد المؤرخون الفرنج بعض الجوانب الاقتصادية للمسلمين كثرواتهم مثلا، فقد وصف فوشيه (Fulcher) مظاهر الغنى التي برزت واضحة على الأتراك المدافعين عن أنطاكية من خلال ذكره الحاجيات التي خلفوها بعد هزيمتهم أمام أسوارها كالذهب، والفضة، والأثواب المختلفة، والأوعية، والعمامات الفاخرة(٢١٢) وبرز ذلك أيضا بالثروات التي كانت تملأ خيام الجيش المصري(٢١٣) الذي جاء لمقاتلة الفرنج: الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، وقلنسوات مرصعة بالذهب، والخواتم الرائعة، والسيوف المدهشة، والحبوب، والحنطة(٢١٤) وهذا يعكس الغنى الذي كان يتمتع به الجيش المصري، ويصور نوعاً من الترف. وربما قصد من ذلك مقارنتهم بما عاناه حجاج الفرنج من الجوع وغيره أثناء مسير حملتهم، ومع ذلك فقد تحملوا وضحوا من أجل دينهم وانتصروا على المسلمين وهذا القصد الذي أراده مؤرخو الفرنج.

---

٢٠٨. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٩، انظر أيضاً عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٣١.

٢٠٩. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٩٦، انظر رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مج١، ص٣٥٤. أشار ابن العديم إلى مراسلة الأمير أحمد وإعطائه الأمان وخروج المسلمين من البلد سالمين فقط لقوله "فراسله الفرنج وأمنوه، ومن كان معه وسلمها...وأنزلوه في دار..." ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٤١.

٢١٠. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٩٦.

٢١١. الجنزوري، الحرب الصليبية، ص٢٥٧.

٢١٢. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦٣، انظر حديث ريموند عن الغنائم التي خلفها الأتراك إثر سقوط أنطاكية كالخيام، والكثير من الذهب، والفضة، وكميات لا تقدر من الحبوب، وأعداد لا تحصى من الماشية، والجمال. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٤٦-١٤٧.

٢١٣. يقصد بذلك الجيش الفاطمي.

٢١٤. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٨-٧٩. انظر أيضا حديثه عن الممتلكات من مختلف الأنواع التي وجدها الفرنج في مدينة القيصرية بحيث أصبح فقراء الفرنج أغنياء من وراء ذلك. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٥.

كما كشف ريموند (Raymond) عن ثروات أهالي معرة النعمان التي كانوا يخبئونها في الآبار مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكانها[٢١٥]. وفي هذا إشارة إلى ما تحلوا به من الحرص والذكاء أيضا، ووصل الثراء ذروته في طرابلس حيث انبهر الفرسان الفرنج عندما رأوا ثراء أميرها لدرجة أنهم أقنعوا الكونت ريموند (Raimund IV Von Toulouse) أن أمير طرابلس سوف يمنحه خلال أربعة أو خمسة أيام الذهب والفضة بما تقر به عينه، إذا حاصر عرقة..."[٢١٦]. وفي هذا استهزاء صريح بأمراء المسلمين وجبنهم، وإشارة لإمكانية تفريطهم بثرواتهم في حالة خوفهم على أنفسهم.

وانفرد ريموند (Raymond) بالحديث عن وفرة الخيول العربية وجودتها في الشام وتحدث عن عمليات شراء الفرنج لخيولٍ من أهل حمص وشيزر. إذ حصل الفرنج على نحو "ألف من أفضل جياد الحرب" حتى زاد الفرسان قوة وازداد الجيش عددا[٢١٧]. وفي ذلك إشارة لثغرة من ثغرات المجتمع الإسلامي آنذاك والتي ساهمت في تقوية جيش الفرنج كما أبدى فوشيه (Fulcher) انبهاره بالبضائع والخيرات التي تمتلئ بها مدينة أنطاكية والتي تأتيها من منافذ برية وبحرية[٢١٨].

وفي الجانب الاجتماعي للمسلمين إبان الحملة الفرنجية الأولى نجد أن النساء المسلمات كُن حاضرات إلى جانب الرجل في مقاومة الفرنج المحاصرين لأنطاكية في مذكرات فوشيه (Fulcher)، فقد ذكر أنهن كُن في الخيام، وبعد انتهاء المعركة وهروب المقاتلين تمكنوا منهن واكتفوا ببقر بطونهن بالحراب[٢١٩]. وأشار المؤرخ نفسه لحالات مصاهرة بين سكان الشام والفرنج بعد احتلالهم لمدينة صور من المسلمين عام ١١٢٤م/٥١٨هـ فقد تملك الفرنج بيوتهم واتخذ بعضهم زوجات منهن لقوله: "اتخذ البعض زوجات لهم ليسوا من بنات جلدتهم بل من السوريات أو الأرمنيات بل حتى من الشرقيات، اللواتي حظين ببركة العماد. فقد يسكن مع المرء حماه أو زوجة ابنه، أو ابنه...فلدينا هنا أحفاد وأولاد أحفاد..." [٢٢٠]. وليس هناك ما يؤكد أنهن مسلمات فقد يكن عربيات مسيحيات، أو من جنسيات أخرى تعيش في كنف الدولة الإسلامية.

ورصد فوشيه (Fulcher) الآثار السلبية التي أصابت مدينة القدس عقب احتلالها بقوله: "وكم زكمت أنوفنا الروائح الكريهة حول أسوار المدينة من الداخل والخارج المتصاعدة من جثث الشرقيين المهترئة الذين فتك بهم رفاقنا عند احتلال المدينة"[٢٢١]. وما ذلك بهدف بيان سيطرتهم الكاملة على المدينة عقب القضاء على أهلها بالقتل والحرق وغيره.

وأبدى فوشيه مشاعر العطف والحزن على المسلمين بعد الزلزال الذي أصاب الشام عام

---

٢١٥. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٩.
٢١٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٥، حبشي، الحرب الصليبية، ص١٦٥.
٢١٧. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٢.
٢١٨. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٤.
٢١٩. المصدر نفسه، ص٦٣.
٢٢٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢١٨.
٢٢١. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٨٢، انظر أيضا مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص١١٩.

١١١٤م/٥٠٨هـ ومنها أنطاكية، يقول: "وقد دمرت البيوت والأسواق برمتها، وأما الناس الذين عاشوا هناك فقد هلكوا واأسفاه عن بكرة أبيهم"[٢٢٢]. وهذه من الحالات النادرة التي يبدي فيها هذا المؤلف نوايا طيبة تجاه أعدائهم المسلمين وربما السبب وجود بعض الأرمن المسيحيين من بين الضحايا.

ورسم فوشيه (Fulcher) صورة واضحة للظروف المعيشية والاجتماعية للمسلمين في ظل الحكم الفرنجي تمثلت بحالة من الرضى والأمان والمساواة مع الفرنج من خلال حرية تنقلهم من وإلى القدس، وتبادل عمليات البيع والشراء مع الفرنج، وإعفائهم من الضرائب، وتمثل ذلك بالمرسوم الذي أطلقه الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) عام ١١٢٠م/٥١٤هـ[٢٢٣] وأشار لحالة من التعايش من خلال تعلّم الطرفين الإسلامي والفرنجي لغة الآخر، فأصبحت الكلمات في اللغات المختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل أمة[٢٢٤].

وقد رسم فوشيه (Fulcher) صورة مهينة للأسيرات المسلمات في مدينة قيصرية[٢٢٥] الفلسطينية بعد سقوطها بيد الفرنج من خلال ممارسة الفرنج أساليب غير أخلاقية معهن، كبيعهن وشرائهن فيما بينهم سواء أكن جميلات أم قبيحات، ووصل الأمر بالفرنج لاستخدامهن في دفع الطواحين[٢٢٦]. وليس هذا بالأمر الغريب على الفرنجة الذين يكنون كل العداء للمسلمين.

كما حاول المؤلفون الفرنج إلصاق سمة العار بالمسلمين بل وإظهارهم بصورة مذلة من خلال ممارسة بعض التصرفات السيئة بحق قتلاهم بعد المواجهات التي كانت تحدث معهم مثلما حدث قبيل حصار أنطاكية عندما علقوا رؤوس المسلمين على أعمدة بقصد إذلالهم وإسكاتهم وعدم معايرتهم للفرنج بعد هذه اللحظة ردا على تصرفات مماثلة كانت للمسلمين بحق الفرنج سابقًا لقول ريموند (Raymond) "وبعد أن كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم، حملنا رؤوس القتلى إلى المعسكر، وعلقناها على أعمدة كتذكرة بائسة لحالة حلفائهم الأتراك، وما ينتظر المحاصرين من مصائب. والآن حين نتأمل فإننا نستنتج أن ذلك كان أمر الرب، لأن الأتراك كانوا قد ألحقوا بنا العار من قبل، حينما غرسوا سن راية مريم المباركة التي استولوا عليها، في الأرض، وهكذ قدر ا أن رؤية رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها، والمحمولة على عصى مدببة، ستمنع المدافعين عن أنطاكية من معايرتنا بعد ذلك"[٢٢٧]. وهذا مؤشر على الحقد والكراهية تجاه المسلمين.

ووصف فوشيه (Fulcher) المسلمين بالوحشية لمعاملتهم أسرى الفرنج بطريقة مهينة لا تعكس أدنى درجات الرحمة، واستشهد على ذلك بما حصل مع الملك بلدوين الثاني (Baldwin II)

٢٢٢. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٤-١٥٥.
٢٢٣. المصدر نفسه، ص١٨٩.
٢٢٤. المصدر نفسه، ص٢١٨.
٢٢٥. قيصرية: وردت عند ياقوت باسم قَيْسَاريّة وهي بلد على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. ياقوت، معجم البلدان، مج٤، ص١٠٧.
٢٢٦. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٥.
٢٢٧. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٤.

كونت الرها قبل تتويجه ملكاً لبيت المقدس[٢٢٨]، وإشارته لما حدث مع أسقف الرها بقوله: "وقد حمله الأتراك أعباء من الأدوات والأوعية كما لو كان بهيمة حاملة للأثقال"[٢٢٩]. وتكاد تتعدد الصورة السلبية للمسلمين بنظر مؤرخي الفرنج فقد نعت المسلمين باللصوصية[٢٣٠]، وبالسرقة[٢٣١]، وبالكذب[٢٣٢]، وبالظلم لقوله: "كان الأرمن يخرجون لملاقاتنا عند مرورنا أمام مدنهم بالصلبان والأعلام، مقبلين أقدامنا...لأنهم سمعوا بأننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت وطأة ظلمهم من قبل..." [٢٣٣]. ووصفوا المسلمين بالمتهورين والحمقى لاعتدائهم على أرض المسيحيين على حد زعمهم[٢٣٤].

خلط المؤلفون الفرنج في وصفهم لبعض رموز الأمة الإسلامية وفئاتها الاجتماعية كالقاضي مثلاً فنجد فوشيه (Fulcher) يشير إلى أن المسلمين كانوا يقيمون كاهناً أو إماما في مركز السلطة لمدنهم قبل السقوط، وسيتم الاستعاضة عنه بعد السقوط بـ بطريرك أو أسقف[٢٣٥]. في حين نعتوا الخليفة العباسي بأنه بابا الأتراك (pope) [٢٣٦]. أما السلطان السلجوقي فسموه زعيم جند ملك فارس[٢٣٧]، وامبراطور الفرس[٢٣٨]. ويمكن تفسير هذا الخلط لجهل الفرنج بالوضع الديني والسياسي في العالم الإسلامي، وافتراضهم وجود سلطتين منفصلتين، وهذه فكرة مغلوطة كثيرا ما

٢٢٨. يشير فوشيه أن الملك بلدوين الثاني أُسر وقيد بطريقة وحشية بالسلاسل على يد الكفار مدة عامين. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢٢١. انظر معاملة المسلمين للفرنج عند حصار نيقيا انظر المصدر نفسه، ص٤٧.
٢٢٩. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٣.
٢٣٠. انظر كيف صورهم فوشيه بقتلهم المسيحيين بين الرملة والقدس وهروبهم واختبائهم بالكهوف. وأعتقد أنه أراد وصفهم بقطاع الطرق بذلك. لقوله: "كان بينهم لصوص اعتادوا أن يتربصوا بين الرملة والقدس، ويقتلوا المسيحيين...". الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٩.
٢٣١. انظر سرقة المسلمين لممتلكات الموتى أثناء حصار أنطاكية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٨٨. انظر قول ريموند أيضا: "إن الكثير من البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سابق في الطريق من البحر إلى أنطاكية وذلك على يد الأتراك، وبعد استرداد هذه الحيوانات الآن أعيدت إلى أصحابها". ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١١٠، وانظر قول فوشيه أن الأتراك في نيقيا سلبوا المواشي التي كانت ترعى في الحقول. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٢.
٢٣٢. وقعت هذه الحادثة عند حصار أنطاكية. مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٣، انظر ترويجهم لمجيء مزيد من القوات مع الخليفة العباسي وتبين أنها إشاعات زائفة، المصدر نفسه، ص١٨٨.
٢٣٣. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٣ حصلت هذه الحادثة عند دخول الفرنج للرها. انظر كيف يصور ريموند ظلمهم لأهل صور بإجبارهم على التخلي عن ديانتهم المسيحية والإساءة للآباء والأمهات. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٢٠.
٢٣٤. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٩٠-٩١.
٢٣٥. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢١٥.
٢٣٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٨.
٢٣٧. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٧١، ٩١.
٢٣٨. فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٥٤.

رددها المؤرخون الفرنج الذين دونوا أحداث الحملة الفرنجية الأولى[٢٣٩].

حاول فوشيه (Fulcher) تشويه عبادات المسلمين بنقدها والاستهزاء بها، فصورها أنها خزعبلات بقوله عند دخول تنكريد إلى الهيكل بالقدس: "لقد مارس الشرقيون هنا عبادة الوثنية بشعائر خزعبلية"[٢٤٠]. معتبراً أن وجودهم في بيت المقدس تدنيس لكنيسة القيامة، وأن المسيحيين بعد دخولهم لها سيعملون على تطهيرها من الوباء الذي أحله المسلمون بها[٢٤١]. في حين نجد ريموند (Raymond) اعتبرهم مدنسين لأرض الشام كلها، بل غرباء عن هذه الأرض[٢٤٢]. وهذا يعني أنهم عدوا أنفسهم الأصحاب الحقيقيين للأرض (أي الفرنج). وبرزت واضحة برسالة الفرنج للأمير كربوغا أثناء حصاره أنطاكية بقولهم له: "لقد عجب زعماؤنا وسادتنا...من أن يدفعكم التهور والحمق إلى اقتحام أرض النصارى التي هي أرضهم هم أيضا،...وإن زعماءنا يسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين..."[٢٤٣].

وعلى الرغم من إقرار فوشيه (Fulcher) بأهمية الدين عند المسلمين واحترامهم لعباداتهم في الأماكن المقدسة في بيت المقدس لكنه حاول التقليل من أهمية ذلك[٢٤٤]. وهذا دليل على جهلهم بالإسلام وكرههم له.

كما كان لثقافة ريموند (Raymond) الدينية كونه رجل دين دور هام في الإحاطة بالمذاهب الإسلامية وتصوير واقعها وبخاصة المذهبين السني والشيعي. أبرز الانقسام السني-الشيعي بين الأتراك والفاطميين في مصر، ولكنه حاول في الوقت نفسه الغمز والتشكيك في إيمان أهل السنة بمذهبهم من خلال إشارته لإشاعة مفادها ما قدمه الأتراك السنة من تنازلات وعروض على الفاطميين في مصر تمثلت باستعدادهم التحول للمذهب الشيعي في حالة وافقوا على الوقوف معهم ضد الفرنج وذلك أثناء السفارة الثانية التي أرسلها الفاطميون للفرنج أثناء حصار عرقة[٢٤٥].

وقد اتهم ريموند (Raymond) المسلمين بالتنصر، والتخلي عن الإسلام خوفا أو إعجابا بالفرنج أثناء حصار عرقة لقوله: "وأصبحت لدينا مؤن كافية لأن الهدايا كانت ترسل إلينا...وفضلا عن ذلك فإن بعض المسلمين بدافع من الخوف أو التحمس لطريقتنا في الحياة، تنصروا..."[٢٤٦].

---

٢٣٩. حماد، صورة المسلمين، ص٢٥٥.
٢٤٠. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٥.
٢٤١. المصدر نفسه، ص٧٦.
٢٤٢. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٢.
٢٤٣. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٩٠-٩١.
٢٤٤. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٧٥.
٢٤٥. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٨، حماد، صورة، ص٢٥٧-٢٥٨.
٢٤٦. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٨٩-١٩٠، أشارت الباحثة منى حماد في بحثها السابق أن تحول المسلمين للنصرانية هذا هي الإشارة الوحيدة في الحملة الصليبية الأولى، انظر حماد، صورة، ص٢٥٨ لكن بعد الدراسة والتمحيص تبين أن هناك حالات أخرى من التنصير في أثناء سقوط أنطاكية. انظر هامش ٢٠٠ ص٢٦ من هذا البحث. انظر حالة تنصّر أخرى في أثناء حصار نيقية. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص٧٩.

ونجدهم يصفون المسلمين في مكان آخر "بالجنس الذي لا دين له"[٢٤٧]، والجنس الملعون المحروم من رحمة الرب[٢٤٨]. كما أظهر صاحب الجستا ما كان عليه المسلمون في أثناء قتالهم الفرنج من حرص على آداب الجهاد بهتافاتهم المشجعة على القتال، التي لم يفهمها، ولكنه في الوقت نفسه أبدى استهزاءه واستغرابه، بوصفها "كلمات شيطانية"[٢٤٩]. ويمكن رد ذلك إلى عدم استيعابها أو فهمها، أو من منطلق الحقد على المسلمين وكراهيتهم.

وقد تكررت هذه النظرة عند ريموند (Raymond) حينما عبر عن واقع الجهاد عند المسلمين ولكن بمفهومه المغلوط والمغاير للواقع وتمثل على حد قوله بطلب ياغي سيان من جنوده إما "أن ينتصروا في القتال أو يهلكوا"[٢٥٠] ونظرته هذه خطأ؛ لأن مفهوم الجهاد عند المسلمين يعني مقاتلة الأعداء أو الكفار والتضحية بالنفس في سبيل ا وليس الهلاك كما زعم هو. فإما تكون النتيجة النصر أو الشهادة.

وعكست روايات ريموند (Raymond) صورة مشوهة للمسلمين، فهم جماعة أشرار مضطهدون للفرنج مسيئون للدين المسيحي، من خلال تدنيسهم الصلبان على أسوار المدن بالضرب وغيره[٢٥١]، وهدمهم كنائس الرب والقديسين، وتحويل الكنائس لمساجد، وتحطيم الصور، واستخدام تماثيل المسيحيين هدفاً لسهامهم[٢٥٢]، ومحاولتهم إجبار بعض المسيحيين التخلي عن شريعتهم المسيحية لقوله: "وعندما زادت قوة المسلمين والأتراك بمشيئة الرب، أجبر الكثير من الصوريين الواقعين تحت نيرهم لأربعمائة سنة أو يزيد التخلي عن بلادهم وشريعتهم المسيحية، ولكن إذا كان البعض قد تحدى المسلمين..فقد أجبروا على تسليم أطفالهم لكي يتم ختانهم، وتعليمهم القرآن، أكثر من ذلك، فإن الآباء كانوا يقتلون بينما كانت الأمهات يلقين معاملة سيئة وينتزع أطفالهن من بين أحضانهن، لقد دفعت المشاعر الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر إلى هدم كنائس الرب"[٢٥٣].

خاتمة

كشفت هذه الدراسة مواطن الضعف السياسية والعسكرية التي انتابت منطقة المشرق الإسلامي عشية الحملة الفرنجية الأولى، وأبرزت الآثار السلبية التي تركتها تلك الحملة على المنطقة

---

٢٤٧. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٢.

٢٤٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠.

٢٤٩. انظر قوله فيما أطلقه الأتراك المسلمون بعد سقوط نيقيه وتوجههم لأنطاكية في أثناء قتالهم للفرنج "شرع الأعداء يصرون على أسنانهم ويصرخون صرخات عالية مدوية...". مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٨-٣٩، انظر قاسم، الحروب الصليبية، ص١٩١.

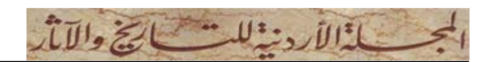
٢٥٠. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٠٦.

٢٥١. انظر هذه الحادثة عند محاصرة الفرنج لمدينة البارة. ريموند، تاريخ الفرنجة، ص١٦٥؛ وكذلك الحادثة عند دخولهم بيت المقدس. المصدر نفسه، ص٢٤٣.

٢٥٢. المصدر نفسه، ص٢٢٠.

٢٥٣. انظر هذه الحادثة في مدينة صور. المصدر نفسه، ص٢٢٠.

وقادتها، وخاصة السياسية والاجتماعية منها. وأبرزت العديد من السمات الإيجابية والسلبية للمسلمين عشية مسير الحملة الفرنجية نحو بيت المقدس، كالشجاعة، والدهاء، والذكاء، والجبن، والخيانة، والخوف، وغيرها. ووصلت الدراسة إلى نتيجة مفادها وجود كثير من المبالغات لدى المؤلفين الفرنج حيال المسلمين، وهي تعبر عن نظرة عدائية وتعصب واضح. وتجلت في هذه الدراسة النظرة الاستعلائية الفرنجية على المسلمين في كتاباتهم تمثلت في نعت المسلمين بالكفار، والملعونين والوثنيين والخارجين عن طاعة الرب، في حين بدا واضحا أثر الحس الديني في روايات هؤلاء المؤرخين تمثل بتناولهم للأحداث من زاوية دينية، ومنطلقات كنسية، برزت باستخدام تعابير واضحة مثل: "بركة الرب"، و"إرادة الرب"، و"فضل الرب"، و"مشيئة ا "، و"جند المسيح"، و"جيش الرب". كما كشفت الدراسة عن مفارقة واضحة في العرض تمثلت بتناول الفضائح والجرائم البشعة التي ارتكبوها بحق المسلمين، وتمجيد تلك البطولات والانتصارات، في حين جعلوا قادة المسلمين عديمي الرحمة وقساة ومتوحشين. حاول المؤرخون الفرنج تشويه صورة المسلمين بإظهارهم مسيئين للدين المسيحي، وإشارتهم لتنصر بعضهم. وعالجت بعض الجوانب الاجتماعية التي يندر وجودها في المصادر العربية.



The View of Frankish Historians Towards Muslims During the First Crusade 490-521 A.H./1096-1127

Luay Ibrahim Bawanih *

ABSTRACT

This study aims to identify the view that the Frankish historians who accompanied the First Crusade had towards Muslims – either positive or negative – based on their writings, whether the authors were close to the military leaders (the decision-makers) or their advisers, and to sift accurately, free from fancies and fanaticism, the views and information that they presented. The study concentrates on the military aspects of the Muslims and draws a clear and detailed picture of the political relations between the Muslims and the Franks in that period, shows the massacres that were committed against the Muslims, which formed part of their hostile view towards Muslims, and throws light on the negative aspects that the Frank historians attributed to Muslims. The study tries to bridge the gap in some aspects of the economic, social and religious life of Muslims from their point of view. The importance of the study derives from its detailed treatment of the Muslims and their leaders and various aspects of their life to form a comprehensive picture through the primary sources of the Franks who accompanied the Crusade, such as the witnesses who gave accurate details that can contribute to enriching our information about Muslims during the First Crusade and form a base that researchers of the First Crusade can rely on.

KEYWORDS: Frankish Historians, First Crusade, Historiography, Muslims

---

* Assistant Professor, Al-Balqa Applied University, Amman University College.
Received on 13/6/2011 and accepted for publication on 28/9/2011.